وإسلاماه

الأندلس

هل تعود دولة إسلامية

مختصر كتاب

انبعاث الإسلام فى الأندلس

للأستاذ / على المنتصر الكتانى

دراسة واختصار

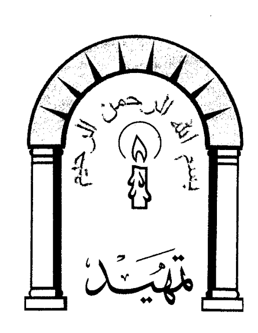
أحمد محمود حماية



بسم الله الرحمن الرحيم

وإسلاماه - الأندلس هل تعود دولة إسلامية

المختار الإسلامى
أسسها حسين عاشور عام ١٩٧٣
القاهرة : ١٥ شارع شهاب - المهندسين
تليفون و فاكس ٣٤٩٠٤١١ - ص ب ١٧٠٧ - القاهرة - رمز بريدى ١١٥١١



الأندلس ذلك النجم الذى هوى ، والدرة التى سقطت من التاج الإسلامى ، الأندلس ذلك الجرح الذى لا يلتئم ، والفقيد الذى تبكيه الدهور ، وتندبه الأجيال ، إنه المأتم الذى لا يزال يسمع فيه نشيج القرون.

تبكى الحنيفيةُ البيضاءُ من أسفٍ
كما بكى لفراق الإلْفِ هَيْمَانُ
على ديار من الإسلامِ خاليةٍ
قد أَقْفَرَتْ ولهَا بالْكُفر عُمْرَانُ
حَيْثُ المساجِدُ قدْ صَارتْ كنائسُ ما
فيهنَّ إلاَّ نواقيسٌ وصُلبانُ
حتى المحاريبُ تَبكى وهْيَ جامدةٌ
حتى المنابرُ تَرْثِى وَهْيَ عيدانُ[1]

ومما يزيد المرء حسرة هو موقف المسلمين من الأندلس ، فعند معظمهم ينتهى تاريخ الأندلس بسقوط غرْناطة سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) وكأن الأندلسيين قد ارتدوا عن الإسلام بعد هذا التاريخ ، وكأنهم لم يفعلوا الأعاجيب فى محاولاتهم للحفاظ على عقيدتهم رغم الاضطهاد الرهيب الذى غشيهم ، وكأنهم لم ينهضوا بثورات جاهدوا فيها جهاد المستميت ، وقاتلوا فيها القتال المرير رجاء استرداد حريتهم ، وإنقاذ هويتهم .ماذا يعرف المسلمون عن كل هذا وعن تنظيماتهم وأوضاعهم ، وعن منطقة الأندلس التى حصلت على الاستقلال الذاتى مؤخرا فى جنوب أسبانيا رافعة العلم الأندلسى الذى لم يرتفع منذ سقوطه من يد أبى عبد اللـه آخر ملوك الأندلس مؤذنة بعودة الأحفاد إلى دين آبائهم الإسلام ؟

لا شئ .. لقد صدق المسلمون أكذوبة الكنيسة الأسبانية التى تقول إن الإسلام مات فى الأندلس إلى الأبد بعد سقوط غرْناطة، وإن مسلمى الأندلس طردوا جميعا منها .

---

[1] من قصيدة لأبى البقاء الرندى يرثى الأندلس .

إذا كان الإسلام فى آسيا الوسطى قد كان على شفا حفرة من الضياع بسبب سبعين سنة من الحكم الشيوعى ، فإن الشعب الأندلسي المسلم ظل قرونا بعد ضياع الملك الإسلامى محافظا على عقيدته حفاظا كاملا يتظاهر بالنصرانية ويبطن الإسلام أخذا بالتقية التى برعوا فى تطبيقها .

وقد كتب الأستاذ الكريم / على المنتصر الكتانى كتابا رائعا وبحثا علميا فريدا هو " انبعاث الإسلام فى الأندلس " جمع فيه مما لم يسبق إليه ولا غنى عنه لراغبى الاعتبار بتاريخ الأمة شيئا كثيرا .

وحيث إن هذا الكتاب الجليل مع أهميته وكثرة فوائده قل من وصل إليهم فقد رأيت أن أضع له مختصرا لتسهل قراءته ونشره يجمع ما لا يسع المسلم جهله فى هذا الموضوع ، والتزمت فيه غالبا المحافظة على ألفاظ المؤلف مع التصرف أحيانا بالتقديم والتأخير للمواضيع المختلفة والاختصار وإعادة الصياغة لبعضها مع زيادة نبذة تاريخية عن الأندلس فى أوله وخاتمة فى آخره عن أسباب سقوط الأندلس ، ثم من أراد الاستزادة فليرجع إلى الكتاب فقد بسط مؤلفه حفظه الله القول وأكثر الشواهد وفصل الأدلة .

نبذة تاريخية عن الأندلس :

تم فتح الأندلس فى ثلاث سنين من سنة ٩٢ هـ إلى ٩٥هـ (٧١١-٧١٤ م) ، وبلغت مساحتها ٧٠٠٠٠٠ كم٢ وكانت تضم معظم أسبانيا المعاصرة وجميع البرتغال وقسما كبيرا من جنوب فرنسا .

وفى مدة لا تتجاوز القرن بعد الفتح الإسلامى أسلم معظم أهل الأندلس الأصليين ، وتعاقبت على حكم الأندلس فى تاريخها الإسلامى الطويل حكومات مختلفة : أولهم الولاة الأمويين حتى سنة ١٣٨هـ ، ثم أمراء بنى أمية حتى ٣١٦هـ ، ثم كان عصر الخلفاء حتى ٤٢٢هـ ، ثم عصر ملوك الطوائف حتى ٤٧٩هـ حيث كانت معركة الزَّلاَّقة التى هزم فيها المرابطون نصارى الشمال هزيمة ساحقة ودخلت الأندلس بعد ذلك بأربع سنين عصر المرابطين والموحدين بعبور يوسف ابن تاشفين الذى أسس فى المغرب دولة المرابطين إلى الأندلس عبوره الثانى ، واستمر عصر المرابطين والموحدين حتى ٦١٢هـ ، ومع تعاقب الحكومات وتوالى العصور كان نصارى الشمال ينتقصون الأندلس من أطرافها الشمالية حتى انحصر الملك الإسلامى فى مملكة غَرْناطة التى صمدت وحدها قرنين من الزمان قبل أن تسقط فى يد الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) .

احتلال وليس استرداد :

من المؤسف أن يصدق بعض المسلمين الأكذوبة الغربية القائلة بأن نصارى الشمال فى غاراتهم الدؤوبة لاحتلال الأندلس منطقة منطقة ومدينة مدينة كانوا يقومون بحركات (استرداد) ، فإن الأندلس بجميع أراضيها كانت حين احتلال النصارى لها قد أسلمت طواعية وانصبغ أهلها بالإسلام دينا وبالعربية لغة وباتوا شعبا من الشعوب الإسلامية الخالصة التى رفعت رايته ونشرت حضارته فى أوربا ، وكان للشعب الأندلسى كشعب من الشعوب الإسلامية طابعه الخاص وصفاته المميزة التى عرف بها كما كان له أثره المميز فى العلوم الإسلامية .

إذاً فلم يكن نصارى الشمال حين كانوا يحتلون الأندلس منطقة إثر منطقة يقومون بعملية (استرداد) كما يزعم الغربيون، وإنما كانوا يقومون بعملية (تشريد لشعب) من أرضه و (قضاء على أمةٍ) و (استئصال) لحضارة علمت أوربا كلها .

ولكن هل نجح نصارى الشمال فى طرد هذا الشعب بأكمله كما يزعمون ؟ وهل تمت فعلا عملية استبدال قضوا فيها على أصحاب البلاد المسلمين وأحلوا فى ديارهم جنسا آخر ممن هاجروا من الشمال ؟ وإذا كانوا فعلوا ذلك فهل تم ذلك فى جميع مناطق الأندلس كما يزعمون ، أم كان ذلك فى مناطق دون أخرى ؟

قضية طرد المسلمين نهائيا من جميع مناطق الأندلس

أولا : انتقال الأسبان من اللين إلى العنف فى تنصير أهل الأندلس :

نظمت الكنيسة الكاثوليكية فى السنين الأولى بعد سقوط غرْناطة سنة ١٤٩٢م فرقا تبشيرية من رهبان وراهبات للقيام بنشر النصرانية وكان ظنهم أول الأمر أن المسلمين سيعتنقون النصرانية بسهولة لا سيما وقد هاجر زعماؤهم وارتد بعض وجهائهم، ثم لما وجدوا مجهود هذه الحملات يذهب سدى أمام إصرار الأندلسيين على دينهم قررت الدولة والكنيسة استعمال القوة والعنف لتنصير المسلمين وهو ما أعلنه الملكان الكاثوليكيان سنة (١٤٩٩ م) ناقضين بذلك معاهدة تسليم غرْناطة التى ذيَّلاها من قبْل بتأكيد يضمنان فيه بدينهما وشرفهما احترامها [٢]، فاستدعى الملك فرانـدو الكاردينال فرانسيسكو سيسنيروس مطران طليطلة لينهض بعملية تنصير المسلمين بالإرهاب والبطش .

ثانيا : الثورات التى قامت بسبب التنصير القهرى

اشتعلت عدة ثورات ضد الاحتلال الأسبانى بسبب سياسة التنصير القهرى كان أولها ثورة حى البيازين حيث ركز سيسنيروس فى البداية على المسلمين من أصول نصرانية وقرر أن كل من ارتد عن النصرانية يعامل هو وأبناؤه وأحفاده معاملة المرتدين ، وذهب يلاحق العائلات التى أسلمت ويزج بها فى السجون رجالا ونساء وأطفالا ، ومن هؤلاء إحدى المسلمات من أصل نصرانى حيث ساقتها شرطة سيسنيروس فى ١٨/ ١٢/ ١٤٩٩ هى وأولادها إلى السجن فتجمع المسلمون وقتلوا الشرطى وحرروا المرأة فلاذ القساوسة بالفرار وانطلق المسلمون ينادون بالثورة فاحتلوا أبراج البيازين وأقاموا المتاريس وهاجموا قصر سيسنيروس فى الليل فإذا هو قد هرب ، ثم نظم الثوار أنفسهم وانتخبوا حكومة من أربعين ممثلا ، ثم تتابعت الأحداث وهدأت الثورة بعد الوعود المعسولة التى قدمها قائد الجيش الذى أرسله الملكان الكاثوليكيان ففضل المفاوضة مع الثوار .

ورفض عدد من قواد الثورة الاستسلام فتحصن منهم نحو ١٥٠٠ بقلعة قولجر بجبال البشرات وشرعوا يشنون الهجمات على الحاميات الأسبانية فى مرج غرْناطة ، وانضم إليهم كثير من المجاهدين واستولوا على عدة حصون أخرى فأرسل الملكان الكاثوليكيان جيشا حاصر بلدة قولجر وقتل جميع أهلها رجالا ونساء وأطفالا ودافع الثوار جهدهم حتى إذا استسلموا استرقوا جميعا ، وبقيت بعض القلاع الأخرى على شاطئ البحر لم تستسلم بل واستولوا على معظم مدن وقرى البشرات فسار إليهم الملك فى جيش عدده ٩٥ ألف مقاتل منهم ١٥ ألف فارس فاحتل قرى البشرات حتى وصل مدينة أندرش التى استبسلت استبسالا منقطع النظير قبل

---

[٢] هكذا كانت أوربا دائما فى حروبها مع المسلمين غدر وخسة ورداءة خلق يتولى كبرها ملوكهم وأشرافهم وقساوستهم ونبلاؤهم، وفى ذلك آية من الله واضحة على بطلان دينهم وضلاله وانعدام شرفهم حيث خانوا بلا حرج ما ضمنوه بدينهم وشرفهم ، وإنّ تولىٌ القساوسة والأشراف فيهم زعامة هذه الخسة لتأكيد لهذه الحقيقة .

أن تستسلم وهكذا خمدت ثورة البشرات بعد أن تعهد الملكان باحترام بعض شروط معاهدة تسليم غَرْناطة .

ولما استعمل القساوسة العنف مع أهل منطقة المَريَّة قامت الثورة فى جبال فلابرش شمال المَريَّة وبلغت أشدها فى نوفمبر ١٥٠٠م حيث طرد الثوار القسس واستولوا على الحصون الجبلية وتركزوا فى مدينة بلفيق وقاتلوا الجيش الذى أرسله الملك قتالا شديدا حتى اضطروا إلى التسليم فقتل الملك الكاثوليكى جميع الرجال فى بلفيق واسترق النساء والأطفال .

ثم ثارت بعد ذلك ثلاث من قرى وادى المنصورة فأخضعوا بالقوة ، ثم ثارت عـذرة مرة أخرى فحاصروها طويلا حتى دخلوها فاسترقوا جميع أهلها ، ثم ثارت رُنْدَة فكان مصيرها مصير غيرها .

ثالثا : تنصير جميع أهل الأندلس والقضاء على مظاهر الإسلام

قام الأسبان بعد إخماد هذه الثورات بتنصير جميع مسلمى الأندلس وتعميدهم ، وذهبوا وتتبعوا جميع مظاهر الإسلام فقضوا عليها فالأوقاف الإسلامية صادروها ، وجميع المساجد جعلوها كنائس ، وحرقوا الكتب الإسلامية حتى بلغ ما حرقوه المليون كتاب فارتكبت الكنيسة بذلك جرما عظيما فى حق العلم والإنسانية ، وحظروا استعمال العربية ، وقضوا بتبديل أسماء أهل البلاد العربية بأخرى نصرانية ، وأقاموا محاكم التفتيش لتتبع الإسلام فى قلوب (النصارى الجدد) .

وهكذا أعلن الأسبان انقراض الإسلام فى الأندلس ولم يعودوا يذكرون المسلمين إلا بالنصارى الجدد أو المورسكيين ، ولكن هل تنصر المورسكيون فعلا وهل تركوا الإسلام ؟

المورسكيون .. أحوالهم وتشبثهم بالإسلام

كتم المورسكيون إسلامهم وارتبطوا به ارتباطا كاملا رغم محاكم التفتيش التى كانت تتربص بهم الدوائر ، وتدينهم بمجرد إشارة أو عبارة يبلِّغها عدو عن عدوه فتمنح المحكمة المتهم أجل ثمود (ثلاثة أيام) بعد القبض عليه ليعترف بالتهمة التى لا يعرفها : فإن أقر بالإسلام مات حرقا ، وإن اعترف بشيء آخر أدانوه به وعذبوه عذابا مفظعا ، فإن أصر على عدم الاعتراف بشيء ناله من العذاب ما كان ينتهى بالموت أحيانا وباعتراف المتهم بكل ما يطلب منه مفضلا الموت على ما هو فيه أحيانا أخرى ، وفى اليوم التالى يطلب منه أن يعيد اعترافاته التى نطق بها أثناء التعذيب فإن كان قد نسى بعضها أعيد إلى التعذيب ، ثم قد ينجو بعد هذا – إذا لم يمت أثناء (المحاكمة) – إذا أعلن التوبة ودفع فدية ضخمة فيفوز (بالمغفرة) مع مصادرة جميع أمواله وضياع صحته من جراء التعذيب الوحشى الذى كان يتنوع بين التغريق والتحريق وسحق العظام وسلخ الجلود وتمزيق الأطراف والسجن فى سجون تحت الأرض لا تزيد مساحتها عن عرض أكتاف المتهم كثيرا ، وقد كانت حدة هذه الهمجية الكنسية تختلف من وقت لآخر .





بين يدى المحكمة

ورغم الاضطهاد فقد ظل الموريسكيون يصلون الخمس ويصومون رمضان ويحتفلون بالفطر والأضحى بل كانوا يظهرون عواطفهم نحو إخوانهم فى الخارج فى الفترات التى كلّت فيها الكنيسة من ملاحقتهم ، فكانوا يحتفلون لانتصارات الدولة العثمانية على النصارى ، ويحزنون لنكساتها ، كما كانوا يفرحون لانهزامات أسبانيا على يد أعدائها ، وكانوا يذبحون الأضحية ويغسلون موتاهم ويدفنونهم فى مقابر خاصة بهم تجاه القبلة ، ولقد أعانهم على هذا تنظيمهم السرى المحكم وبراعتهم فى تطبيق فن التقية لدرجة كبيرة ، فكانوا إذا أجبروا على عقد الزواج فى الكنيسة باللباس النصرانى فعلوا ذلك ثم إذا عادوا لدورهم نزعوه ولبسوا لباسا إسلاميا وأعادوا العقد بالطريقة الإسلامية بحضور الفقيه الذى كان يتنكر فى زى عامل .

ولقد زاد تمسكهم بالإسلام وشعائره بزيادة اضطهاد الكنيسة ومحاكم التفتيش وحافظوا على طهارتهم وصلاتهم حتى وهم فى السجون وفى طريقهم إلى الإعدام حرقا .

وكان فقهاؤهم يقومون بدور كبير فى تثبيتهم فكانوا يواسونهم ، ويعلمونهم أمور دينهم ، ويزوجون شبابهم، ويعودون مرضاهم، ويدفنون موتاهم، كما تولوا كتابة الكتب الدينية باللغة الأعجمية بحروف عربية حين اجبروا على ترك العربية التى انقرضت بينهم فى القرن الثامن عشر ، وقبل ذلك كان الموريسكيون مزدوجى اللغة[٣]، وقد انتشرت هذه الكتب بين الموريسكيين انتشارا كبيرا رغم معاقبة السلطات الكنسية بأشد العقوبات لكل من وقع تحت يدها ممن له علاقة بهذه الكتب بالقراءة أو النسخ أو احتفظ بها ، واليوم يرقد فى المكتبات الأسبانية وغيرها من هذه الكتب آلاف المجلدات شاهدة على تراث يتيم يعانى اليوم الضياع والإهمال من الأسبانيين لعدم معرفتهم الحروف العربية التى كتبت بها ، ولبعد الثقافة التى تحملها هذه الكتب عنهم ، ويهمله العرب الذين لا يحسنون اللغة الأعجمية التى كتبت بها .

ولم يتشبث هذا الشعب المجاهد بالإسلام فحسب رغم الاضطهاد الرهيب من قبل الكنيسة فحسب بل قام الموريسكيون بدعوة النصارى إلى اعتناق دينهم والانضمام معهم إلى الحالة التى هم عليها ، وطوال القرن السادس عشر قبضت محاكم التفتيش على ١١٠ نصرانى قديم بتهمة اعتناق الإسلام ، وقبضت طوال القرن السابع عشر على ما لا يقل عن ١٧٧ نصرانى قديم اعتنق الإسلام وهاجر إلى بلاد المسلمين ، ثم رجع

---

[٣] سيأتى خبر اتهام محاكم التفتيش فى سنة ١٦٣٣ لأحد الموريسكيين بعدة تهم من بينها استعمال العربية فى حديثة مع ضيوفه الموريسكيين ، وقد وقعت هذه الحادثة فى مقاطعة (كونكة) التى سقطت فى يد نصارى الشمال قبل نحو قرنين من سقوط مملكة غرْناطة وهو ما يعنى أن الموريسكيين فى ذلك الوقت كانوا لا يزالون على استمساكهم بدينهم ولغتهم رغم مرور نحو ثلاثة قرون ونصف من الاضطهاد، ثم إن مقاطعة كونكة التى وقعت فيها تلك الحادثة تقع خارج منطقة الأندلس المعاصرة الموصوفة باستمرار الوجود الإسلامى فيها لوقت متأخر بعد ضياعه من مناطق أسبانيا الأخرى .

لمحاربة أسبانيا ، وهذا يعنى أن حوالى ٣٥ ألف أسبانى من أصول غير إسلامية هاجروا إلى بلاد المسلمين طيلة هذا القرن واعتنقوا الإسلام ، هذا فضلا عمن لم يقع فى أيدى محاكم التفتيش .

صفات الموريسكيين

كانوا يحبون العمل ويتقنون أداء أعمالهم بشهادة أعدائهم على خلاف معاصريهم من النصارى .

قال أحد الرحالة الألمان وقد زار منطقة أراغون القديمة أيام الملكين الكاثوليكيين : إن الموريسكيين السَرَقُسْطِيِّن كانوا أقوياء البنية متعودين على العمل الشاق ، وذكر أنه يمكن لستين منهم أن يعيشوا على أرض لا تغذى ربع عددهم من النصارى بسبب حبهم للعمل وقدرتهم عليه .

كما كانوا موصوفين بقلة الطعام مقارنة بالنصارى فى زمانهم حتى قال أحد النصارى عنهم " إن الله خلقهم ليعيشوا بأكل رديء وقليل " !

وكانوا يعرفون بالنظافة حتى أصبحت الحمامات من علاماتهم التى حاربتهم محاكم التفتيش بهدمها .

وقد اشتغلوا بالأعمال والصناعات والحرف المختلفة وبرعوا فى الزراعة حتى إنه بعد طرد سنة ١٦٠٩ م انقرضت بعض الزراعات نهائيا من أسبانيا .

وعندما طردوا فى مملكة بَلَنْسِيَة من السهول الخصبة إلى الجبال الجرداء أنشئوا فيها زراعة السطوح المدرجة ، واحتالوا بحيل هندسية رائعة لجلب الماء لها واستغلالها أفضل استغلال .

وقد احتكروا بعض الصناعات فى بعض مناطق أسبانيا مثل صناعة الحرير والحديد والنحاس .

رابعا : طرد الموريسكيين الجماعى من أسبانيا

مجادلات حول الطرد :

رغم تنصير جميع مسلمى الأندلس فإن الكنيسة الكاثوليكية لم تطمئن إليهم ، ويئست كل اليأس من أن تحقق نجاحا فى تنصير قلوبهم كما نصّرت ظواهرهم ، وظل الموريسكيون مترابطين ومنعزلين عن المجتمع النصرانى يتحينون الفرص للتحرك ، ويترقبون مساعدة تأتيهم من إخوانهم فى الخارج ليقوموا بثورة تخلصهم من الأوضاع الأليمة التى أمسوا فيها معذبين .

وبدأت الدولة الأسبانية تفكر فى التخلص من الموريسكيين وذهب القساوسة ورجال الدولة فى اقتراحاتهم إلى ثلاثة مذاهب : إما جمع الموريسكيين فى أحياء خاصة بهم على أن يكون قضاتهم من النصارى ، وإما إفناؤهم جميعا ، ثم تفاوتت آراؤهم فى تحديد الطريقة : أيكون ذلك باختطاف أطفالهم ؟ أم بإرسال شبابهم للعمل فى المناجم والسفن حتى يتم إفناؤهم ؟ أم بإخصاء جميع ذكورهم كبارا وصغارا ؟ أم بقتل الموريسكيين دفعة واحدة ؟ أم بجمع كل الموريسكيين وحملهم على السفن ثم إغراقهم فى عرض البحر على ما اقترحه بعض وزراء فليبى الثانى لعنهم الله جميعا ؟ . وذهب أصحاب المذهب الثالث إلى طردهم من البلاد

وقد ظهرت هذه الآراء فيما بين سنة ١٥٨٢م و سنة ١٥٨٥م حيث أصدر فليبى الثانى أمره الملكى بطرد جميع الموريسكيين من أسبانيا فى مدة شهرين والحكم بالإعدام شنقا على كل متخلف ، واستثنى الأمر الأطفال حيث يتم تسليمهم للكنيسة ، ورغم أن هذا الملك اتخذ هذا القرار بعد أن تيقن بأن معظم الأهالى النصارى يساندون الفكرة ، وأن الكنيسة شبه مجمعة عليه فقد تردد فى تنفيذه وعادت الكنيسة إلى أمل

تنصير الأندلسيين مرة أخرى ، وظل الوضع هكذا إلى أن مات فليبى الثانى سنة ١٥٩٨م .
وبدأ عهد فليبى الثالث الذى كان منعدم الشخصية بخلاف أبيه فصار ألعوبة فى يد الرهبان ، واستمر التردد والاختلاف فى أمر طرد المورسكيين إلى سنة١٦٠٨ حيث اجتمع مجلس الدولة بكامل أفراده الذين وافقوا جميعا – حتى الذين ترددوا من قبل – على طرد المورسكيين جميعا من الأراضى الأسبانية ، وكان دوق ليرما كبير المتحمسين لاتخاذ قرار الطرد ، وأنشط الدعاة إليه بحجة فشل كل حملات التنصير ، وما أثقل ما حمله هذا الرجل وحده من وزر هذا القرار وتنفيذه ، وإلى الله ترجع الأمور.

أسباب التردد فى طرد المورسكيين

الحق أن الدافع الأقوى وراء دوق ليرما وأشياعه كان الطمع فى ثروات المورسكين حيث كان لهم وضع اقتصادى متميز ، كما كان الدافع الأقوى وراء معارضى الطرد الخوف على الاقتصاد الأسبانى ومن انخفاض دخل الملك والنبلاء الذين لم يوافق من عارض منهم الطرد إلا بعد أن اقتنع بإمكانية استبدال عماله المورسكيين بآخرين نصارى ، وحتى بعد اتخاذ قرار الطرد حاولت عدة ممالك نصرانية استثناءها من القرار لأنه كما قال أسقف بَلَنْسِيَة " تعتمد المدن والقرى الكبرى (يعنى فى مملكة بَلَنْسِيَة) فى تموينها على ما يأتى به هؤلاء (المورسكيون) ، فالكنائس والأديرة والمستشفيات والطوائف الدينية والنبلاء والسادة والمواطنون وأخيرا جميع الذين هم ضروريون لإدارة الدولة ولراحتها الروحية والدنيوية كلهم يعتمدون على خدمات المورسكيين " .
ثم تأتى بعد ذلك أسباب عارض لأجلها بعض رجال الكنيسة عملية الطرد مثل " خسارة أرواح المورسكيين نهائيا للدين النصرانى " وكذلك : " من الفظاعة طرد رجال نصروا إلى بلاد المسلمين وإجبارهم بذلك على الدخول فى الإسلام " .

بين آلام الرحيل وفظائع الطرد

وقد صاحبت عمليات الطرد جرائم وفظائع لا تصور فقد أمرتهم السلطات بحمل ما استطاعوا من أمتعتهم على ظهورهم ، ثم عندما أخذوا يبيعون مواشيهم ودوابهم ومنتجاتهم الزراعية بأبخس الأثمان منعوا وأعطى ذلك للنبلاء النصارى ، ثم تكونت فى الطرقات عصابات من النصارى تسطوا عليهم وتجردهم مما يحملون من حلى ومال ويقتلون منهم من شاءوا ، وشارك فى النهب والسبى والقتل أفراد الجيش الذين يحرسونهم .
ثم قررت الدولة أن يكون ترحيلهم على حسابهم بحيث يدفع غنيهم عن فقيرهم . وأغرق أصحاب السفن النصارى كثيرا من المورسكيين الذين نقلوهم لسلب أموالهم ، بينما كان فى مأمن أكبر من نقلتهم سفن الحكومة . وعومل الكثير منهم عند الوصول إلى شمال إفريقيا أسوأ المعاملة من عصابات الأعراب الذين قتلوا ونهبوا ما شاءوا فأخذ كثير من المورسكيين يرجع إلى أسبانيا ويتستر كى لايقبض عليه ، أو يهب نفسه عبدا لمن أراد .
وقد أدى اليأس بجماعات من المورسكيين بعد أن جاءهم بالأخبار العائدون إلى القيام بثورات انتحارية فى القرى الجبلية ككورتش وكوفرانش وآيورة وفى منطقة لقنت قضت عليها السلطات بالبطش والعنف .

تفاوت نسبة المورسكيين المطرودين من منطقة لأخرى

طرد من أسبانيا فى الفترة التى بين ١٦٠٩ و ١٦١٤حوالى ٣٢٧٠٠٠ مورسكى منهم ١٩٥٠٠٠ من مملكة

أراغون ١٣٢٠٠٠ من مملكة قشْتَالة ، وقد تفاوتت تقديرات المؤرخين لعددهم ، لكن معظم من عايشوا الأحداث برهنوا على أن الإحصاءات أعطت أرقاما بين ٢٧٠ ألفا و ثلاثمائة وأربعين ألفا .

ومن أسباب هذا الاختلاف أن بعض المطرودين رجع مرة أخرى ، وبعضهم حسب فى المطرودين وهو لم يخرج ، وبعضهم طرد عدة مرات ، وقد طرد هؤلاء إلى شمال إفريقيا عموما والمغرب خصوصا حيث استقر معظمهم .

وقد بلغت نسبة مسلمى أراغون (وتشمل بَلَنْسِيَة وأراغون القديمة وقطلونية) ٢، ١٢ ٪ من السكان بعد الطرد ، بينما لم يطرد من منطقة الأندلس المعاصرة سوى ١٦٪ من مسلميها ، ومن طردوا من مملكة قشْتَالة عموما (وهى تشمل الاسترمادورا ومُرْسية والأندلس) لا يتجاوزون ٢٩٪ من مسلميها ، وبيان ذلك فى الجدول الآتى عن مملكة قشْتَالة وتوابعها :

المملكة	المسلمون قبل الطرد	عدد المطرودين	الباقون	نسبة المطرودين
القشتالتان	٨٥٠٠٠	٥٠٠٠٠	٣٥٠٠٠	٪ ٥٩
الاسترمادورا	١٧٠٠٠	٨٠٠٠	٩٠٠٠	٪ ٥٣
مُرْسية	٣٨٠٠٠	٢٢٠٠٠	١٦٠٠٠	٪ ٥٨
الأندلس	٣٢٠٠٠٠	٥٢٠٠٠	٢٦٨٠٠٠	٪ ١٦
المجموع	٤٦٠٠٠٠	١٣٢٠٠٠	٣٢٨٠٠٠	٪ ٢٩

يبين هذا الجدول عدم صحة خرافة الطرد النهائى لمسلمى أسبانيا سنة ١٦٠٩ م خاصة منطقة الأندلس المعاصرة التى لم يطرد سوى ١٦ ٪ من مسلميها ، وبسبب ذلك ينحدر اليوم معظم سكان منطقة الأندلس بحدودها الحالية من أصول إسلامية .

هذا على عكس ما حدث فى مملكتى أراغون القديمة وبَلَنْسِيَة حيث لم يبق بها بعد الطرد سوى خمس مسلميها . وهذا يفسر الشعور السائد فى منطقة الأندلس الحالية بالانتماء إلى التاريخ الإسلامى ، مما كون القاعدة الأساسية للقومية الأندلسية المعاصرة.

وإذا كنا نتحدث عن طرد المسلمين الذين كانوا يسمون (المورسكيين) أى النصارى الجدد فإنه ينبغى ملاحظة أن النصارى القدامى فى مناطق الأندلس كانوا من أصول إسلامية وأجبروا على التنصر بضغوط متواصلة عبر القرون .

موقف الأهالى والمسؤولين :

ومما يشهد لهذا موقف الأهالى النصارى والمسؤولين ، فبينما كانوا فى معظم مناطق أسبانيا يستغلون عملية طرد المورسكيين لينهبوهم ويسلبوهم أملاكهم ، دافع الأهالى والمسؤولون فى الأندلس عنهم ، وحاولوا

جهدهم حفظهم من الطرد بل قاموا بإخفائهم بينهم كما حدث فى قاعدة غرْناطة مما يدل دلالة قاطعة على أن معظم هؤلاء ينحدرون من أصول إسلامية ، ويضمرون العطف على إخوانهم فى محنتهم .

وقد نشر الملك فليبى الثالث لعنه الله فى ٢٢ / ٣ / ١٦١١م أمرا ملكيا ينبه فيه على أن عددا من المورسكيين الأندلسيين الذين يدَّعون أنهم نصارى قد تخلفوا عن الخروج ، وأن عددا آخر منهم قد رجع بعد الطرد ، ويأمر بإخراجهم جميعا دون استثناء .

ولكن المسؤولين فى الأندلس لم يكن عندهم الحماس اللازم لتنفيذ هذا الأمر الملكى – كما أراد الملك – وإزاء هذا الموقف المتباطئ منهم جدد الملك فى ٣١ / ٥ / ١٦١١ أمره بطرد المتخلفين ، ثم أصدر فى ٢١ / ٨ / ١٦١١ أمرا ثالثا ، ثم رابعا فى ١٩ / ٩ / ١٦١٢ ، ثم خامسا فى ١٦ / ١ / ١٦١٣ ، ثم سادسا فى ٢٠ / ٤ / ١٦١٣ م .

الشكل والصفات والطبائع :

ومن الأدلة الدامغة على أن أهل الأندلس المعاصرة هم أحفاد أولئك المسلمين هو شكل هؤلاء وأولئك ، فإن شكل الأندلسيين القدامى لا يختلف عن شكل المورسكيين لا يختلف عن شكل الأندلسيين المعاصرين ، بينما هم جميعا يختلفون عن شكل الأسبان فى الشمال.

والأعجب من ذلك أن الأمر يتجاوز مجرد التماثل فى الشكل إلى الصفات والطبائع التى وصف بها أهل الأندلس فى عصوره الإسلامية وأثبتتها كتب التراث مع ما هو عليه أهل الأندلس اليوم منطقة منطقة ومدينة مدينة :

قال أبو الفضل النيقاشى :" جرت مناظرة بين يدى ملك المغرب المنصور يعقوب (الموحدى) بين الفقيه أبى الوليد ابن رشد والرئيس أبى بكر ابن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة : ما أدرى ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية " وأهل إشبيلية هم كذلك اليوم يحبون الطرب والغناء ، كما أن أهل قرطبة مَوْسُومون بالجد والنفور من اللهو .

وقال الحجازى عن مدينة شَريش : " لأهلها همم وظرف فى اللباس وإظهار الرفاهية وتخلق بالآداب ، لا تكاد ترى بها إلا عاشقا ومعشوقا " وهى كذلك اليوم ، إذ تعد نسبة الشباب فيها من بين السكان أعلى نسبة فى القطر الأسبانى .

ووصف لسان الدين ابن الخطيب أهل غرْناطة بأنهم بيض الوجوه سود الشعور وهم كذلك اليوم ، كما تحدث القدامى عن التنافس القائم بين أهل إشبيلية وجيرانهم أهل طَرْيَانة . والحال كذلك اليوم .

وبصفة عامة يمكن التعرف على أهل الأندلس بسهولة من بين غيرهم من أهل أسبانيا لاختلاف سماتهم عن القشتاليين والقطلانيين وغيرهم .

دلائل متفرقة :

وأهم ظاهرة فى الهوية الأندلسية المعاصرة هو حنين أهلها للإسلام ، وكرههم للكاثوليكية التى أجبروا عليها.

وبهذا الشعور قام أهل قرطبة بالدفاع عن مسجدها الأعظم عندما أراد ملك قشْتَالة هدمه لبناء كنيسة قوطية

على أنقاضه .

كما ظهرت كراهية الأندلسيين للكنيسة فى ثوراتهم الشعبية المتواصلة ، والحروب الأهلية طوال القرن التاسع عشر ، والعشرين حيث كانت حركاتهم دائما ضد الكنيسة والحكومة المركزية فى آن واحد ، وكثيرا ما قام الأندلسيون بحرق الأديرة وملاحقة الرهبان فى تلك الثورات .

وفى بحث حديث قامت به الكنيسة ثبت أن أقل نسبة لزوار الكنائس بين مجموع السكان فى أسبانيا هى فى مقاطعات الأندلس الثمانية ، بل إن معظم كنائس الأندلس قد أصبحت إما مقفلة وإما مفتوحة للسياح بعد أن فقدت من يقوم على رعايتها بسبب نفور الأندلسيين من الرهبنة .

وفى العادات الشعبية المعاصرة فى منطقة البشرات فى الأندلس تخيف الأم طفلها قائلة له :" سيأتيك رجل السَّمْن " وذلك لأن الرهبان فى القرن السادس عشر كانوا يطوفون بشحم الخنزير على البيوت ، ويُكْرِهُون أهلها على أكله حيث كانوا يخفون إسلامهم ، ومن يمتنع حل به العذاب الأليم .

ومن الأدلة كذلك على اعتزاز الأندلسيين بأصولهم الإسلامية ما تفعله بعض المدن فى الأندلس اليوم حيث تحتفل كل عام بذكرى انتصار المسلمين على النصارى فى معارك الأندلس التاريخية كما تفعل بلدية قمارش بمنطقة الشرقية فى يوم ٢٥ مارس من كل سنة .

وكذلك الكتب التى تصدرها المدن الكبيرة والصغيرة تبين فيها أصولها الإسلامية كما فعلت منطقة الشرقية وبلدة قمارش وعذرة والمَرِيَّة وغيرها من المدن والقرى والمناطق .

وينعت الأندلسيون إلى اليوم خارج منطقتهم فى أسبانيا بكلمة (مورو) أى مسلم ، وهذا يدل على أن صورة الأندلس فى نظر باقى أسبانيا لاتزال إسلامية .

ومن أكبر الشواهد على أن أهل الأندلس المعاصرة هم أحفاد ألئك المسلمين هو توزيع ملكية الأراضى ، فبعد سقوط مدن الأندلس صودرت الأراضى ، ونزعت من أصحابها المسلمين ، ووزعت بين الكنيسة والنبلاء وكلاهما من الغرب النصرانى ، وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وزعت أراض شاسعة على أجانب فرنسيين وإنجليز ، فأصبحت أرض الأندلس فى يد عدد صغير من الملاك ، بينما بقيت الجماهير الأندلسية المسلمة بغير أرض ، والوضع كذلك اليوم ، وهو من أكبر المشاكل التى تواجه الأندلس المعاصرة .

ومن الأدلة الواضحة على اعتزاز الأندلسيين بجذورهم الإسلامية ما قامت به قريبا بلدية فرجليانة بمنطقة الشرقية (مقاطعة مالقة) فقد أقامت فى كل أروقة المدينة وشوارعها لوحات خزفية تحمل صورا وكتابات بالأسبانية تمجد المقاومة الإسلامية أيام ثورة غَرْناطة الكبرى .

نبذة عن ثورة غَرْناطَة الكبرى

ثورة غَرْناطة الكبرى (١٥٦٨-١٥٧٠ م) كانت آخر محاولة لأهل الأندلس لإنقاذ الإسلام ، جادوا فيها بالنفس والنفيس، وضحوا فيها تضحية لم يضح بمثلها شعب قبلهم فى التاريخ ، ولقد كادوا ينتصرون لولا خذلان إخوانهم فى العالم الإسلامى لهم ..

قامت الثورة بقيادة محمد بن أمية الذى بايعه الثوار ملكا على الأندلس وقائدا للثورة فنهض وصلى بالحاضرين ، وأقسم أمامهم على القيام بالجهاد حتى النصر أو الاستشهاد، وكان الحاضرون ستة وعشرون ممثلا عن المناطق الأندلسية المختلفة .

وقد حرر المجاهدون خلال أسابيع قلائل المئات من الحصون والقرى والمدن فى كل أنحاء مملكة غرْناطة، وقد انضم إلى الثورة فى أوجها ما يقارب ثلاثين ألف مجاهد من بينهم خمسة آلاف من المتطوعين الأتراك والجزائريين والمغاربة .

وفى هذه الثورة الفريدة فى الاستماتة والتنظيم والشجاعة ضد أقوى جيش فى أوربا آنذاك استغل المجاهدون الأندلسيون تضاريس الجبال ومعرفتهم بالبلاد أحسن استغلال، فكانوا يضربون العدو ضربات سريعة ينتقلون بعدها بسرعة من جبل لآخر، وقد اخترعوا حرب العصابات وأتقنوها متحاشين المعارك الطويلة فخارت فى أول الأمر معنويات الجيش الأسبانى الذى لا يحسن إلا الحرب التقليدية، لاسيما بعد أن عمل المجاهدون على تجويعه بحرق المحاصيل الزراعية .

وطوال أحداث الثورة كانت تصرفات الدولة الأسبانية ضد الثورة والمدنيين العزل تتصف بالهمجية والشراسة ، ولقد كانوا يقتلون كل من يتمكنوا منه من المسلمين ، فوقعت فى خلال الثورة مذابح رهيبة ضدهم حتى بلغت بشهدائهم خلال هذه الثورة عشرات الآلاف .

ومن النكسات التى أصابت الثورة فى بدايتها خذلان أهل حاضرة غرْناطة للثورة ونكوصهم عن نصرتها تخوفا من عواقبها ، ومع هذا فلم يسلموا من غدر النصارى الذى بلغ ذروته وأفظع مراحله بمذبحة سجن غرْناطة ، حيث هجم حراس السجن فى الليل على السجناء وطفقوا يقتلونهم حتى الصباح ، فذهب ضحية هذه المجزرة فيمن ذهب ما لا يقل عن مائة وخمسين من أعيان غرْناطة كانوا محتجزين كرهائن .

ولقد كانت شراسة النصارى سببا فى استبسال المجاهدين وانضمام أفواج جديدة من المتطوعين ممن رفضوا المشاركة من قبل مفضلين الموت دفاعا عن الدين والشرف على ذبحهم كالنعاج مما أذكى روح الجهاد .

وقد فقدت الثورة قائدا فذا من قوادها هو فرج بن فرج الذى عزله ابن أمية لأنه كان يقوم بعمليات فردية دون الرجوع إلى القيادة .

الشهيد المظلوم

ثم استشهد قائد الثورة محمد بن أمية بمؤامرة من المتعاونين مع العدو ، حيث زوّر كاتبه عليه رسالة يُفهم منها خيانته ، فقبض عليه رجال الثورة وسجنوه .

وفى ليل ٢٠ / ١٠ / ١٥٦٩ م قام كاتبه ومعه دييكو الوزير بخنقه فى السجن ، وقد ظل رحمه الله ناصحا لأمته وضحى من أجلها بالغالى والرخيص ، فشُرد أهله ، وقُتلت أمه وإخوته وزوجته ، وسُجن أبوه وأخوه فما وهن ولا استكان ، وأجره عند الله، وكان له عند بيعته اثنان وعشرون عاما ، وكان شجاعا راجح العقل ، وكان يدعوا المجاهدين والأهالى خلال الثورة إلى الرجوع إلى الأصالة الإسلامية والاهتمام بالصلوات الخمس وإحياء المساجد .

وقد كان انخداع قواد الثورة بالمؤامرة التى أدت لقتله انتكاسا كبيرا للثورة ، وانسحب بعد استشهاده بعض قواد الثورة مفضلين الهجرة إلى أرض الإسلام ، وتزعزعت بعده وحدة المجاهدين ، وقلت الإمدادات التى كانت تصلهم .

وتولى من بعده قيادة الثورة عبد الله محمد بن عبو الذى بويع سلطانا على الأندلس وقائدا للثورة خلفا لسابقه .

أما الثوار فحين ضعفت إمكانياتهم ، وقلّ عددهم ، وكثرت فظائع الأسبان ضدهم حيث كانوا يقتلون ويسترقُّون كل من يقع تحت أيديهم من المسلمين ضعفائهم وشيوخهم ونسائهم وأطفالهم في هذا الوقت أرسل الأسبان خوان النمساوى إلى قائد الثورة ابن عبو بعروض مغرية لشخصه ليستسلم فأجاب ابن عبو أنه " يُشهد الله أنه لا يرغب فى الملك ، وحيث إن الأمة الأندلسية انتخبته سلطانا عليها فإنه لن يستسلم ولو ظل وحده مجاهدا " .

صرخات استغاثة :

وقد قام زعيم الثورة محمد بن أمية ومن بعد استشهاده عبد الله محمد بن عبو بإرسال الكتب إلى ملوك المسلمين فى الشرق والغرب واحدا بعد الآخر يستنجدونهم ويستغيثونهم فلم تجد صرخاتهم إلا آذانا صما ، وخذلهم الجميع لاسيما الدولة العثمانية التى كانت تقدر على نجدتهم ، قال صاحب تاريخ الدولة السعدية " فصاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقا وغربا وهم يناشدونهم الله فى الإغاثة وأكثر كتبهم إلى مولاى عبد الله (ملك المغرب) لأنه هو القريب إلى أرضهم " ومن نداءات الاستغاثة التى كتبت بلهجة تفيض حزنا ومرارة ما كتبه قائد الثورة السلطان محمد أبو عبو بتاريخ ١١ / ٢ / ١٥٧٠ م إلى مفتى القسطنطينية فكان مما قال " وبما أننا نقاسى المتاعب الشديدة فى هذه الأزمة المريرة ، فإننا نلجأ من جديد إلى الباب العالى نطلب النجدة والمعونة والنصر على أيديكم ، فالنجدة النجدة ، بالله القاهر فوق الناس جميعا ، ونرجو سيادتكم إعلام السلطان القادر بأحوالنا ، وإخباره بأخبارنا ، بالحرب الكبرى التى نخوضها ، وقولوا لعظمته : إنه إذا أراد أن يشملنا برعايته وعطفه فليبادر إلى إنجادنا بسرعة قبل أن نهلك ، فهناك جيشان قويان يتجهان إلينا لمهاجمتنا من جهتين " .

ثم يقول " وإننا إذا ما اندحرنا فى المعركة فإن الله سيحاسبه حسابا عسيرا يوم القيامة يوم لا تنفع القوة فى الحجة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته " .

ولم يحرك الباب العالى ساكنا ، والأسوأ من ذلك ما فعله سلطان المغرب عبد الله الغالب السعدى فقد غرّر، بهم وتآمر مع الأسبان ضدهم لعنه الله ، قال صاحب تاريخ الدولة السعدية : " كان قد قوى سلطانه ، وصحت أركانه ، وجندت جنوده ، وكثرت أعداده فأمرهم (أى أهل الأندلس) بأن يقوموا على النصارى ليثق بهم فى قولهم بظهور فعلهم ، فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الإغاثة ، وكذب عليهم غِشًّا منه لهم ولدين الله عز وجل ، من أجل مصلحة ملكه الزائل ".

ثم ذكر أنه كانت بين هذا السلطان وبين النصارى مكاتبات وفيها " أشار عليهم بأن يُخْرِجُوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب قصده بذلك تعمير سواحله " .

تخاذل المسلمين وتناصر الصليبيين :

وبينما تخاذل المسلمون عن نصرة إخوانهم رغم استغاثاتهم فقد لبى النصارى نداء ملك أسبانيا حين طلب العون من الممالك النصرانية ، فتقاطر عليه آلاف المتطوعين من النصارى والمرتزقة من جميع أنحاء أوربا فى حرب صليبية حاقدة ضد الأندلسيين، وجاء ت من إيطاليا وحدها قوة بحرية تتكون من أربعة وعشرين سفينة .

استشهاد الخليفة والقائد الأخير :

واستمر ابن عبو فى المقاومة حتى لم يبق معه سوى أربعين مجاهدا أغرى الأسبان رجلا منهم يدعى الشنيش كان حاقدا عليه فقتله الشنيش مع ستة من رجاله فى الكهف الذى كان ابن عبو مختبئاً فيه ، وسلم جثمانه للأسبان فدخلوا به غرْناطة فى حفل ضخم بعد أن ألبسوه لباسا كاملا وكأنه حى ، ووضعوه فى قفص حديد استتبعه أفواج من أسرى الأندلسيين ، ثم حملوا الجثمان على النطع وأجروا فيه حكم الإعدام فقطعوا رأسه، وسحلوا الجسد فى الشوارع حتى تمزق ، ثم أحرق فى أكبر ساحات غرْناطة ، ووضعوا الرأس فى قفص من حديد رفع فوق باب المدينة لمدة ثلاثين يوما .

وهكذا انتهت ثورة غرْناطة الكبرى سنة ١٥٧٣ بعد استسلام مناطق غليرة وصيرون وبُرْشانة [٤] ومناطق وادى المنصورة فى ولاية المَريَّة .

وقد قتل فى هذه الثورة عشرات الآلاف من المسلمين ، وبضعة آلاف من الأسبان .

مأساة جديدة :

بدأت بعد القضاء على الثورة مأساة جديدة لم ير الشعب الأندلسى مثيلا لها من قبل فقد تم تشريد أهل مملكة غرْناطة على جميع أنحاء مملكة قشْتالة وبلغ مجموعهم ثمانين ألفا من المسلمين مات منهم فى الطريق بسبب الإعياء والتعب أو بعد الوصول بقليل عدد كبير [٥]، وكان الجيش الأسبانى فى بعض مراحل التهجير يجبرهم على المشى تحت المطر والثلج لأسابيع متواصلة، رغم أن جلهم كان من الشيوخ والأطفال والنساء ، وقد أدى ذلك بهم إلى متاعب مهلكة مما أثار شفقة جلاّديهم أنفسهم كما جاء فى كتاب فرومينو دى فونتس من البسيط إلى الكاردينال دى سيكونزة حيث قال :

" إنه لمنَ المؤثر جدا أن نرى العدد الكبير من الأطفال الصغار والنساء ، يعمهم الفقر والحرمان اللذان لا ينتهيان ، مع سوء الأحوال الجوية وكثرة العدد حتى أصبح من الصعب إكمال كل ما يجب إكماله للاستجابة لكل الحاجات مهما كان المجهود " .

تأمل فى موقف ملوك المغرب :

ومن الملاحظ نكوص سلاطين المغرب فى تلك الفترة عن غوث أهل الأندلس ، رغم مواقفهم الرائعة فى التاريخ التى بسطوا فيها لإخوانهم فى الأندلس يد العون والنجدة حتى جر ذلك على المغرب فى بعض الفترات الويلات .

---

[٤] حصن على ملتقى نهرين ، وكان من أمنع الحصون مكانا ، وأوثقها بنيانا ، وأكثرها عمارة كما قال صاحب كتاب الروض المِعْطار .

[٥] قامت الحكومة الأسبانية فى ذلك الوقت باستقدام ٥٠ ألفا من نصارى الشمال سلمتهم أراضى غرْناطة الزراعية وأحلّتهم فى ديار المسلمين المطرودين ، ولكن لعدم خبرتهم بشؤون الزراعة تدهور إنتاجها فى حين عجزوا عن دفع الضرائب المفروضة عليهم فأخذوا يعودون من حيث أتوا وفشلت عملية الاستيطان هذه فشلا ذريعا فى حين رجع سرا كثير ممن تم تهجيرهم ، والذين كانوا قد اختبؤوا فى الجبال ، فلم يخرج من غرناطة فعلا إلا أعداد من النساء والمستضعفين كما ترى فى كلام فونتس أعلاه .

لكن خيانة ملوك المغرب فى تلك الفترة للإسلام لم تقف عند حد ما فعله عبد الله الغالب السعدى إبان الثورة ، بل استمروا على هذا النهج سلطانا بعد سلطان يتحالفون مع الأسبان ضد الدولة العثمانية على حساب الأندلسيين ، وينظرون إلى أهل الأندلس كأنهم غنيمة توظف فى الجيش المغربى لتقويته ، أو يستغلون فى تعمير سواحل المغرب .

ففى معركة وادى المخازن سنة ١٥٧٨ م رغم انتصار المغرب فيها بفضل المجاهدين الأندلسيين فإن سلطان المغرب أحمد المنصور أعدم زعماءهم بعد الانتصار وبيعته مباشرة ، وشرَّد آلافا منهم فى الصحراء بدل أن يتركهم لبلادهم ليدافعوا عنها .

ثم غدر بهم مرة أخرى المامون ولى عهد أحمد المنصور بعد أن استتب له الملك ، فسلم للأسبان ثغر العرائش وكان مركزا للجهاد البحرى الأندلسى ضد الأسبان ، وعندما طلب منه الأندلسيون إعانتهم على الثورة أوصل الخبر إلى الأسبان تقربا منهم لعنه الله.

تتابع خذلان المسلمين لإخوانهم:

ولم يكن خذلان المسلمين لإخوانهم فى الأندلس إبان ثورة غَرْناطَة الكبرى أول العهد بخذلانهم ، فقد سبق أن استغاثوا بملوك المسلمين أكثر من مرة ، من ذلك استغاثتهم بالسلطان العثمانى سنة ١٤٩٩ م ، وسنة ١٥٠٢ م حيث أرسلوا له رسالةً قصيدةً من مائة وثلاثة أبيات يصفون فيها أحوالهم وصفا مبكيا أليما ، وهذه مقتطفات منها :

سلامٌ عليكم من عبيدٍ تخلَّفوا … بأندلسٍ بالغربِ من أرضِ غربةِ
أحاطَ بهم بحرٌ من الرومِ زاخرٌ … وبحرٌ عظيمٌ ذو ظلامٍ ولُجَّةِ
سلامٌ عليكم من عبيدٍ أصابهم … مصابٌ عظيمٌ .. يالها من مصيبةِ
غُدِرْنَا ونُصِّرْنا وبُدِّلَ دينُنا … ظُلْمًا .. وعوملنا بكلِّ قبيحةِ
وكنَّا على دينِ النَّبِّى محمدِ … نقاتل عُمَّالَ الصليبِ بنيَّةِ
فلما دخلنا تحت عَقْدِ ذِمَامِهِم … بدا غَدْرُهُم فينا بنَقْضِ العزيمةِ
وخانَ عُهُودا كان قد غرَّنَا بها … ونُصِّرْنَا كَرْهًا بعُنْفٍ وسَطْوَةِ
وأحْرَق ما كان لنا من مصاحفٍ … وخَلَّطها بالزِّبْل أو بالنجاسةِ
وكلُّ كتابٍ كان فى أمْر دينِنَا … ففى النار ألقوه بهُزْءٍ وحُقْرةِ
وقد أمَرُونا أن نَسُبَّ نبينَا … ولا نذكُرَهُ فى رخاءٍ وشِدَّةِ
وقد سمعوا قوماً يغنُّونَ باسمه … فأدركتهم منهم أَلِيمُ المَضَرَّةِ
وقد بُدِّلَتْ أسماؤنا وتحوَّلت … بَغَيْر رضىً مِنَّا وغير إرَادةِ
فآهاً على تبديل دينِ محمدِ … بدين كلاب الروم شر البريةِ
وصرنا عبيدا لا أسارى فنُفْتَدَى … ولا مسلمين نُطْقُهُمْ بالشهادةِ
فلو أبْصَرَتْ عيناك ما صار حالُنَا … إليه لجادت بالدموع الغزيرةِ
فيا ويلنا ، يا بُؤْسَ ما أصابنا … من الضُّرِّ والبَلْوَى وثوبِ المَذَلَّةِ

استمرار الوجود الموروسكي في الأندلس في القرنين السابع عشر والثامن عشر

رغم تشبث الموريسكيين بالإسلام سرا فإن مرور القرون كان ولا شك سببا فى أن أعداد المستمسكين بدينهم أخذت تتناقص، وخلف الاستمساك بالإسلام فيهم الحنين إليه .

لكن الإسلام لم ينته بينهم حتى القرن السابع عشر والثامن عشر ، وكانوا على إخفائهم له ، فقد أرسل ملك المغرب فى سنة ١٧٦٦ م سفيره أحمد بن المهدى الغزالى الأندلسى إلى ملك أسبانيا للمفاوضة فى إطلاق الأسرى المغاربة ، وتحسين أوضاع بقية الأسرى المسلمين فتحدث بعد عودته عن بلدتى بلاسيوس و بلافرانكا المتجاورتين بمقاطعة إشبيلية فقال : " ولا مرية فى أنهما من بقايا الأندلس ، وقد التقينا برجل من طلبة المدينتين اسمه بلاشكو وهو من أعيان العدول عندهم ، وقد أظهر من الميل إلينا ما غلب على الظن أنه مسلم ، وصار يشير إشارة خفية ، ويكثر من الالتفات حال مخاطبته إيانا ، ولم يستطع التصريح بما فى باطن الأمر " .

وقال عن أهل الش (مقاطعة لقنت) :" ميلهم للمسلمين بالقلب والقالب " .

وقال عن أهل إشبيلية : " ومما يغلب على الظن من ظهور انقيادهم وامتثالهم وفرحهم بالمسلمين أنهم إذا عرض عليهم الإسلام لأجاب جميعهم ، لو لم تكن بين ظهورهم الفرايلية (الرهبان) .. وهذا ما أبدته الفراسة فى القوم عند مباشرتهم ، واختبار أحوالهم من غير لفظ ولا إشارة ، إلا ما كان من بقية الإسلام فمنهم من لفظ ومنهم من أشار " .

وفى سنة ١٧٧٩ (١١٩٣ هـ) أرسل سلطان المغرب سفيره محمد بن عثمان المكناس إلى ملك أسبانيا فى شأن افتكاك الأسرى المغاربة ، وقد تحدث المكناس عن زيارته لغَرْناطة فقال : " وبهذه المدينة من بقايا الأندلس شىء كثير فمنهم من ينتسب ومنهم من لا ينتسب ، وقد تعرَّف إلينا أحد أصحاب الشرطة ممن له غلظة وتجبر ، وقد رأيت فيه ظلما كثيرا يضرب النصارى ويشتمهم وقد أتانى ذات يوم فقال : إنى من المسلمين ، وإنما جعلت هذه الخطة بيدى للوصول إلى إذاية هؤلاء الكفرة ، وأنا من أولاد صيرون " .

وفى سنة ١٨٤٧ كتب فورد (رحالة غربى) عن أجيجر معقل المجاهدين القديم فى البشرات فقال : " أجيجر الإسلامية عاصمة البشرات محاطة بالجبال . ونصف أهلها مسلمون رغم أنهم يتكلمون الأسبانية"، ووصف نساء المنطقة بأنهن ينظرن إلى الغريب (بشراسة) من النوافذ التى هى كالثقوب لصغرها .

وقد حاكمت محاكم التفتيش فى مقاطعة كونكة ١٦٣٣ م أحد الموريسكيين بتهمة اتهمته بها خادمته وهى أنه " يطبخ غذاءه بالزيت عوضا عن شحم الخنزير ، ويأكل اللحم أيام الجمعة بدون سبب وجيه ! ، ولا يذهب إلى الكنيسة لا هو ولا زوجه ، ولا يعلمان الديانة النصرانية لأولادهما ، ويغسلان أيام الجمعة ويلبسان ملابس فاخرة ، ويأوى إلى بيتهما موريسكيو مُرْسِية من بغالين وغيرهم فيتكلمان معهم باللغة العربية، ويقفلان عليهم الغرفة الساعات الطوال " .

ومن طريف ما وقع فى هذه المحاكمة أن القاضى احتج على المتهم بأنه " من طبقة المسلمين الذين يحتفظون فى قلوبهم سرا بدين محمد لذا طردوا من أسبانيا " وقدَّم خمسة شهود يشهدون ضد المتهم بأنهم رأوه خاصة سنة ١٦٣٢– يأكل اللحم فى الأيام الممنوعة خاصة ، وكذلك " السمك والجبن وأشياء أخرى

مضرة بالصحة " !

أما المتهم فقد قام بالدفاع عنه وابل من الشهود يشهدون له بضد ما اتهم به ، واحتال فى الخروج من كل تهمة وجهت إليه : فأما اللغة التى كان يتكلم بها فليست العربية ولكنها البَلَنْسِيَّة ، وأما اللحم فلم يأكله إلا بنصيحة الطبيب الذى شهد له بذلك، وأما عدم الذهاب إلى الكنيسة فقد شهد له البعض بالذهاب ، وأما عدم أكل لحم الخنزير فلم يتهمه به إلا الخادمة التى عملت عنده سبعة شهور فقط ، وبقيت المشكلة فى ختانه فقد قال للمحكمة إنهم ختنوه فى الجزائر بالقوة ! فقال القاضى : المسلمون لا يرغمون أحدا على اتباع دينهم ، ولا يرغمون أحدا على الختان ! فتقدم عدد من الشهود يشهدون له بالصلاح وتوزيع الصدقات على الفقراء من ماله الخاص !.

وهكذا قضت المحكمة أخيرا ببراءته بشرط أن يستغفر علنا من خطيئة الختان فى الجزائر .

بقية من المسلمين سراً حتى العصر الحاضر

وحتى العصر الحاضر كانت لا تزال قلة قليلة من أهل الأندلس مستمسكة بالإسلام سرا ، من ذلك ما ذكره الأستاذ إبراهيم بن أحمد الكتانى حيث قال : حدثنى صديقى الأديب الكبير خير الدين الزركلى رحمه الله أنه كان فى زيارة للأشبونة واستدعاه أحد وجهائها وأثناء الحديث قال له : إننا مانزال مسلمين نتوارثه عن أجدادنا منذ العهد الإسلامى .

وقال الأستاذ إبراهيم أيضا : وأخبرتنى الدكتورة آمنة اللوه أنها كانت فى الأندلس فى صحبة زوجها فالتقيا فى الطريق بأسرة أندلسية لاحظا أن نساءها يرتدين ثيابا محتشمة فتعارفا وأخبروهما أنهم مسلمون يخفون إسلامهم .

ويروى الأستاذ إبراهيم الكتانى كذلك خبرا عن أول صلاة عيد صلاها المسلمون بعد إعلان الحرية الدينية فى أسبانيا حيث كان من الذين حضروا الصلاة شخص كان يحمل حقيبة أخرج منها ثوبا إسلاميا لبسه بعد أن نزع ثوبه النصرانى ، وقال إنه من المسلمين الذين كانوا يخفون إسلامهم .

ختاماً...

وختاما فالشعب الأندلسى لايزال حيا له ذكرى وإن كانت مشوشة ، وآمال وإن كانت غير واضحة ، وهو القائم اليوم تحت أسماء مستعارة وبشكل يتنافى مع ماضيه ، ولكن تحت تلك الأشكال لايزال وميض من شخصيته الإسلامية قائما ، أصبح يقوى عند الكثير من شبابهم المثقف ، يتحول إلى شعلة مؤذنا بصحوة إسلامية يخرج نورها من بين الرماد .

ارتباط القومية الأندلسية المعاصرة بالإسلام

يمكن إدراك هوية القومية الأندلسية المعاصرة من خلال فكر الأستاذ بلاس انفانتى – رحمه الله – حيث يعتبره جميع الأندلسيين أباهم الروحى ومفكر انبعاثهم المعاصر .

وقبل بلاس انفانتى كانت الحركة الأندلسية فى القرن التاسع عشر تتركز حول الانتماء إلى منطقة واحدة (الأندلس) وأمة واحدة (الأندلسية) والمطالبة بحقوقها والوقوف أمام تجاوزات الدولة المركزية والكنيسة الكاثوليكية ، والإقطاع الزراعى ، لكن لم يدرس أحد من مفكريهم حينذاك مقومات الأمة الأندلسية الخاصة بها ، فهل الأندلسيون يرتبطون فقط بمصالح خاصة متصلة بمنطقتهم ؟ ، أم أنهم قومية تختلف عن غيرها

من القوميات بخصائص مميزة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي هذه الخصائص ؟ فكان بلاس انفانتى أول من أجاب على هذه الأسئلة بما هو مقبول عند معظمهم .

ولد بلاس إنفانتى سنة ١٨٨٥م وظهر له فى سنة ١٩٢٠ مكتاب (المعتمد بن عباد ملك إشبيلية الأخير) ، وفى سنة ١٩٢٣ زار قبر المعتمد بن عباد فى أغمات بالمغرب فى ظروف عصيبة وأعلن إسلامه .

وكان له نشاط كبير وفكر جريء تبناه الأندلسيون بعد استشهاده ، وكان يقول : هدفنا تحرير الشعب الأندلسى روحيا واقتصاديا ، وكان يلح فى خطبه على ضرورة الرجوع إلى الأصالة الأندلسية ، ومجَّد جامعة قرطبة الإسلامية التى علمت أوربا كلها الحضارة والتمدن ، وطالب الأندلسيين باستعادة الهوية والتاريخ والأرض ، كما طالب بحرية التعليم ومجانيته ، وهاجم الكنيسة التى عد من أكبر جرائمها طردها للمسلمين الأندلسيين وقضائها بذلك على " زهرة ما تبقى من ثقافتنا " .

ثم هدد إذا لم تستجب الحكومة المركزية لمطالب الشعب الأندلسى بإعلان الجمهورية الأندلسية " والدفاع عنها ولو أدى ذلك إلى استشهادنا لإنهاء الاستعمار الخبيث الذى قضى على الأندلس كشعب شرقى " وغير ذلك من الكلام الخطير حينذاك.

وفى كتابه أساسيات الأندلس يقول : إن إعادة إحياء الأندلس ترتكز على الأساسيات الآتية :

١- الأندلس الإسلامية كأساس مطلق .

٢- الاتجاه الروحى .

٣- الاتجاه الاقتصادى.

٤- الاتجاه السياسى .

ثم فصل كل موضوع على حدة .

فلم يكن عجيبا أن تعدمه الحكومة الأسبانية رميا بالرصاص سنة ١٩٣٦ م رحمه الله رحمة واسعة .

استقلال الأندلس سنة ١٩٨٠

انتعشت الحريات فى أسبانيا بعد هلاك طاغيتها فرانكو سنة ١٩٧٥ الذى نصب نفسه رئيسا على البلاد منذ عام ١٩٣٧ بعد خروج اليمين منتصرا من الحرب الأهلية الأسبانية ، فقضى على الحريات وألغى قوانين الجمهورية وحكم البلاد حكما استبداديا.

وبعد هلاكه تحولت أسبانيا من دولة مركزية إلى دولة اتحادية تتكون من ١٧ وحدة حصلت على مستويات متفاوتة من الحكم الذاتى ، وحرصت بعض المناطق على الاعتراف بها ليس كمنطقة حكم ذاتى فقط بل على خصوصيتها كقومية قائمة بذاتها كالقومية القطلانية والباسكية ، وبين هذه القوميات وجدت القومية الأندلسية نفسها فى وضع فريد لأنها ركزت وجودها على قاعدة تاريخية إسلامية ، بينما قامت جميع القوميات الأخرى على ذكرى الدول النصرانية التى قامت فى القرون الوسطى ضد الوجود الإسلامى ، لذا تلكأت الحكومة المركزية فى منح منطقة الأندلس حكما ذاتيا ، ولكن بعد حركة الأحزاب السياسية الأندلسية ومطالبتهم بالحكم الذاتى قررت الحكومة المركزية إجراء استفتاء فى ٢٨ / ٢ / ١٩٨٠ فى ثمان مقاطعات أندلسية لتحصل الأندلس على استقلالها ، ووضعت لنجاح الاستفتاء شروطا مجحفة تعجيزية لم تعامل بمثلها أى من المناطق الأسبانية الأخرى ، هذا فى الوقت الذى كان زعماء الأندلس يخشون إحجام

الشعب الأندلسى عن التصويت كما امتنع ثلثه عن التصويت فى الانتخابات والاستفتاءات الماضية لأسباب أهمها كثرتها ، وعقلية الشعب الأندلسى التى تأثرت بالاضطهاد المتواصل مما جعله سلبيا إزاء كل ما يأتى من الحكومة .

ولكن رغم ذلك ولله الحمد فقد نجح الاستفتاء الذى عده المراقبون انبعاثا للأمة الأندلسية .

وتبلغ مساحة الأندلس ذات الحكم الذاتى ٨٧٢٦٨ كم٢ (٢٨ ، ١٧٪ من مساحة أسبانيا) ، وهى أكبر كثيرا من مملكة غرْناطة التى صمدت وحدها نحو القرنين من الزمان قبل أن تسقط فى يد النصارى ، وهى أصغر من الأندلس التى يراها القوميون الأندلسيون حيث لم يدخل فيها كل المناطق التى يرجع أهلها إلى أصول إسلامية .

رموز منطقة الأندلس ذات الحكم الذاتى

١- الترس :

أحيا القوميون الأندلسيون الترس الرمزى الذى وجد على باب قصبة قرطبة ، والذى يعود تاريخه إلى زمن عبد الرحمن الناصر الأموى ويمثل مئذنة مسجد قرطبة الجامع تعلوها ثلاث كويرات نحاسية ، وتحيط بالمئذنة أسوار مدينة قرطبة وأربع نخلات فأحيوه وجعلوه شعارا للأندلس الحديثة وزادوا عليه هذا البيت مكتوبا باللغة العربية والخط الكوفى :

قرطبة موطن الحرب والفرسان ومورد الحكمة الصافى والعرفان أما منطقة الأندلس ذات الحكم الذاتى فقد اتخذ الأندلسيون لها ترسا آخر من ابتكار انفانتى سنة ١٩١٨ ، وحيث إن فكر انفانتى فى ذلك الوقت لم يكن قد صقل واستقرت معالمه حول الأصل الإسلامى فقد جاء الترس معبرة معالمه عن فترة ما قبل إسلام الأندلس ، ومع هذا فقد اتخذه الأندلسيون شعارا للأندلس المستقلة ، حيث إن فانتى باعث قوميتهم ، ورائد نهضتهم .

٢- العَلَم :

يتكون علم منطقة الأندلس ذات الحكم الذاتى من ثلاث شرط أفقية متساوية خضراء فبيضاء فخضراء .

يرمز اللون الأخضر فيه إلى الدولة الأموية فى الأندلس التى كان علمها أخضرا ، ويرمز الأبيض إلى الدولة الموحدية التى حكمت الأندلس ووحدتها بعد شتاتها إلى طوائف . فهو علم إسلامى محض رجع فيه الأندلسيون بمحض اختيارهم إلى أصولهم الإسلامية .

والجدير بالذكر أن هذا العلم ليس مستحدثا بل كان هو علم أبى عبد الله الصغير آخر ملوك غرْناطة ، وكان أول من اتخذه السلطان أبو يوسف يعقوب الموحدى حيث رفعه على مئذنة مسجد إشبيلية الأعظم بعد انتصاره على الجيوش النصرانية فى معركة الزَّلَّاقة ، وقد غنم القشتاليون من ملوك بنى نصر ٢٢ علما من هذه الأعلام بقى بعضها فى المتاحف الأسبانية إلى يومنا هذا .

وقد ظل الأندلسيون يخرجون هذا العلم فى معظم ثوراتهم فى القرون المختلفة .

عودة الأندلسيين إلى الإسلام :

حقق القوميون الأندلسيون مشروع بلاس إنفانتى السياسى بينما بقى مشروعه الحضارى والثقافى والدينى ينتظر من يقوم به .

وفى الفترة الأخيرة قام نفر من صفوة القوميين بدراسة تاريخ الأندلس ، وسَرْعان ما أعلنوا إسلامهم ، ومن أبرز هؤلاء أنطونيو مدينة مليرة الذى أسلم فى عام ١٩٨١ م وتسمى عبد الرحمن .
ثم قرر اثنان آخران من زملائه فى الحركة القومية الأندلسية اعتناق الإسلام ، ثم أخذ المبرِّزون من الشبلب القومى الأندلسى يعتنقون الإسلام الواحد تلو الآخر فكانوا نواة الجماعة الإسلامية فى الأندلس التى ينحدر معظم مؤسسيها من عائلات أندلسية مثقفة .
وقد نفر هؤلاء العائدون إلى الإسلام من الجمعيات الإسلامية الوافدة حيث إن معظمها جاء يحمل أفكارا بعيدة عن الإسلام السمح تتسم بضيق الأفق واختلال الفهم للإسلام ، فمنهم من جاء بفكر الصوفية الدرقاوية، ومنهم من دعاهم إلى التنكر لقوميتهم بدعوى أنها من أمور الجاهلية رغم أن الدعوة القومية الأندلسية هى مفتاح هداية الشعب الأندلسى إلى الإسلام وتعريفه وتذكيره بدين آبائه .
ومن هذه الجمعيات ما يأخذ تنظيمه شكلا هرميا ويعتقد بوجوب طاعة أمير الجماعة طاعة مطلقة ومن اعترض انطرد .

قيام أول جمعية أندلسية لتنظيم العودة للإسلام :

ولكل هذا فقد قامت (الجماعة الإسلامية فى الأندلس) على أكتاف الأندلسيين الخُلَّص لتنظيم عودة الشعب الأندلسى إلى الإسلام وتعريفه به ، وتنظيمها يقوم على الشورى فلها مجلس أعلى يرأسه رئيس منتخب ، وتؤخذ كل القرارات بالتشاور .
وفى غضون عام واحد من قيام هذه الجماعة سنة ١٩٨٢م افتتحت لها خمسة فروع فى خمس مدن أندلسية.
وإن تماسك هذه الجماعة ووسائلها الناجعة الرائعة التى تستعملها لتعريف الأندلسيين بدين آبائهم وتنظيم عودتهم إليه يجعل لها الصدارة والقبول فى المجتمع الأندلسى ، ويحتم على المسلمين فى العالم الإسلامى أن يمدوا إليها يد العون لتتمكن من أداء مهمتها ، والاضطلاع برسالتها لأن قلة إمكانياتها فى الوقت الحاضر تحدد من نشاطاتها ، ولو ساندها المسلمون مساندة جادة فيمكن أن نرى الأندلس الإسلامية مرة أخرى .

من نشاطات الجماعة :

ومما قامت به هذه الجماعة احتفالها بعد عام من نشأتها بذكرى مرور تسعمائة سنة على وفاة المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بغرض التعريف بوجودها ، وأقامت الحفل فى قصر فندق طَرْيَانَة الذى سلمته لهم بلدية طَرْيَانة لهذا الغرض .
ابتدأ الحفل فى مساء الجمعة ١٤ / ١٠ / ١٩٨٣ حيث وقف أسد الله دل ميلاغرو (من مالقة) مؤذنا لصلاة المغرب بصوت جميل ، وصلى المغرب حوالى مائة من الأندلسيين بإمامة عمر كوكا تحت حراسة عشرات من رجال الشرطة ، ونظرات الإجلال والاحترام من آلاف المتفرجين من أهل إشبيلية .
وتجمع فى هذا الحفل معظم أعضاء الجماعة الإسلامية فى الأندلس الذين قدموا من مدن الأندلس المختلفة، وبعد صلاة المغرب أطلق المسلمون الأندلسيون سربا من الحمام الأبيض على ضفاف الوادى الكبير رمزا للسلام والمحبة التى يدعو إليها الإسلام .
ثم انتقل الجميع عبر الوادى الكبير إلى قصر (فندق طَرْيَانة) ، وزين لهذه المناسبة أهل طَرْيَانة بيوتهم

وأخرجوا ملاحفهم على الشرفات كما هى عادتهم أيام الأعياد ، وكان القصر غاصا بالحاضرين ويقدر عددهم بحوالى خمسة آلاف ، وابتدأ الحفل فى جو نشاط وحماس باسم الله العلى القدير وبالصلاة على نبيه الكريم، ثم تناول الكلام رئيس الجماعة مبينا أهدافها وبرنامجها : جماعة إسلامية أندلسية على خطا السلف الأندلسى الصالح ، تحاول إرجاع الهوية العقدية والثقافية والقومية للشعب الأندلسى المظلوم ، وتكون بذلك الوريث المعاصر لنضال شعب طال قرونا ، ولمشروع بلاس انفانتى لاستعادة الهوية الأندلسية .
وعندما حان وقت العشاء فسر المنظمون معنى الأذان للحاضرين ، وطلبوا منهم الإنصات إليه باحترام ، وذكّروهم أنه كان يطلق من مآذن الأندلس جميعها خمس مرات يوميا لمدة قرون ، وأذّن أسد الله فطأطأ الحاضرون رؤوسهم بخشوع ثم صفقوا بعد الأذان بحرارة تعبيرا عن ابتهاجهم به .
ثم تكلم عبد الرحمن مدينة عن المبادئ الإسلامية وعن حياة المعتمد بن عباد فقال : سنقرأ عليكم بعض أشعاره بلغتكم العربية التى أجبرتم على نسيانها ونترجمها للغة القشتالية التى فرضت عليكم ، ثم ألقى الشاعر الأندلسى خوزى لويس أورتيز قصيدة مجّد فيها الأندلس وتاريخها ، وبكى على ما آلت إليه من تفسخ وانحطاط فى الهوية ، ثم قدم الفنان الأندلسى بيبى روميرو قطعة موسيقية على البيانو وحضر الحفل فنانون أندلسيون آخرون ، وقد حرصت الجماعة على إشراك شخصيات أندلسية فى الحفل حتى تجعل الحفل الإسلامى حفل جميع الأندلسيين وتعرفهم بدينهم القديم وبجذورهم .
ثم نظمت أسبوع الثقافة الأندلسية فى جامعة مالقة ، وقد شارك فيه عدد كبير من أفراد الطبقة المثقفة فى مالقة .

وهكذا نجحت الجماعة فى عامها الثانى فى اكتساب الاحترام لدى المثقفين الأندلسيين مما مكنها من التعامل معهم وجذبهم لأفكارها ومن ثمَّ القيام بالدعوة الإسلامية على أعلى مستوى .
وقد عارضت الجماعة الاحتفالات السنوية التى كانت تقيمها الحكومة المركزية للاحتفال بذكرى سقوط المدن الأندلسية فى يد النصارى ، فى كل مدن الأندلس ، فى قرطبة ومالقة وإشبيلية وغرْناطة وغيرها ، ونظمت مظاهرات سلمية ضد هذه الاحتفالات شارك فيها الحزب القومى الأندلسى واليسار المتحد واللجان العمالية ، ومن ذلك ما حدث فى مستهل سنة ١٩٨٤م حيث نظمت الجماعة فى ذكرى سقوط غرْناطة احتفالا معاكسا للذى تقيمه الدولة والكنيسة وسمته (البكاء على غرْناطة) فنشر أعضاؤها الأعلام الأندلسية على برج قمارش بقصر الحمراء ، ومرت سياراتهم بالأبواق فى المدينة تنادى فى المواطنين " هذا يوم حزن وليس يوم فرح ، ففى٢ / ١ / ١٤٩٢ احتلت غرْناطة ولم تحرر ، لتحترم الدولة والكنيسة أرواح أجدادنا الشهداء ، لتحترم ألئك الذين دافعوا عن أرض الأندلس فسقوط غرْناطة هو سقوط السيادة الأندلسية " .
ثم أقامت حفلا فى ساحة عامة حضره آلاف الغرْناطيين (أكثر ممن حضر فى احتفال الحكومة) وألقى فيه مفكرون أندلسيون خطبا حول عظمة الأندلس الإسلامية ، كما شارك عدد من الفنانين والأدباء والشعراء الأندلسيين .

وكان لهذا الحفل صدى طيب فى الأندلس وفى أسبانيا إذ لأول مرة يجهر المسلمون بشعورهم .
وبذلك نجحت الجماعة فى تزعم الحركة القومية الأندلسية .
ومن أهم أعداء الجماعة فى الوقت الحالى فى أسبانيا اليهود والكنيسة وبعض الجمعيات الإسلامية التائهة، وهؤلاء يشنون بين الحين والحين مع كل نجاح جديد تحققه الجماعة ، أو تقدم تحرزه حملات صحفية

لتشويه صورة الجماعة وتنفير الناس منها، فالله يكلؤها بعنايته ، ويحوطها بحفظه وتوفيقه ورعايته .

وبعد : فإن الملاحظ إهمال العالم الإسلامى لأمر الأندلس وحركة البعث الإسلامى الذى تشهده ، وإعراضه عن بسط يده بالمعونة لها ، وذهوله عن صلة رحم طال قطعها وساء هجرها ، والله سائلٌ الناس عما أوجبه عليهم وإن هم ذهلوا عنه ، وأعرضوا عن العمل به .

إن البعث الإسلامى فى الأندلس لا يتم ما يراد له حتى يشارك المسلمون فى تلك الجهود التى يبذلها المخلصون من أبناء الأندلس الذين عادوا إلى دين أسلافهم .

وعند ذلك يمكن أن نرى شمس الإسلام تبسط ضياءها على الأندلس من جديد ، والله غالب على أمره ولكن أثر الناس لا يعلمون.

تحقيق فى أسباب سقوط الأندلس

إن المتأمل فى سقوط الأندلس ، وفى الأسباب التى وقفت وراء هذه الكارثة المفظعة ، والمصيبة المروعة يلوح له من الأسباب ما يملأ القلب حسرة على الحال التى وصلت إليها الأندلس قبيل سقوطها ، ويجعله يجزم بيقين أن ضياع الأندلس لم يكن حيفا من الزمن حل بها ، أو جورا من الأيام وتعسا من الحظوظ . إن ضياع الأندلس لم يكن بلاء نزل من السماء ، ولكنها أسباب صعدت من الأرض ، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

إنها الفتن الداخلية والنزاعات الطائفية فى المجتمع الأندلسى المسلم والتى تبعها ظهور الدويلات العنصرية التى وصلت إلى ٢٣ دويلة فى بعض الأوقات ، فوثبت عليها الممالك النصرانية وطفقت تبتلعها الواحدة تلو الأخرى حتى انحصر الملك الإسلامى فى غرْناطة التى صمدت وحدها قرنين من الزمان قبل أن تسقط فى يد النصارى سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م .

ولقد قامت مملكة غرْناطة [١] فى وقت كانت الأرض الإسلامية فى الأندلس تتناقص بسرعة مفزعة ، والممالك والمدن الإسلامية تتساقط فى يد النصارى وكأنها تستبق ، حتى نزلت مساحة الأندلس فى أقل من قرن من حوالى ٢٥٠٠٠٠ كم٢ إلى ٣٠٠٠٠ كم٢ فقط حتى لم يكن أحد يتوقع فى ذلك الحين لهذه المملكة الناشئة فى ذلك الوقت العصيب أن تبقى طويلا .

على أن من أهم أسباب صمود غرْناطة وحدها كل تلك الفترة (بالإضافة إلى قوة الجبهة الداخلية وإغاثة سلاطين المغرب لهم) كان انشغال مملكتى قشتالة وأراغون النصرانيتين عنها بنزاعاتهما وبفتنهما الداخلية من الصراع على الملك بين أفراد الأسر المالكة .

وغرْناطة رغم معاناتها كذلك من داء الصراع على الحكم واستنصار بعضهم على بعض بالنصارى وكثرة الفتن الداخلية والثورات على ملوكها لإساءتهم السيرة فقد ظلت الحروب بينها وبين قشتالة وأراغون سجالا مرة لها ومرة عليها .

فلما كانت آخر أيام غرْناطة كثرت فتنها الداخلية والصراع على الملك وصار المتنازعون يستنصر بعضهم

---

[١] اتخذ ابن الأحمر مؤسسها غرْناطة عاصمة له منذ ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) .

على بعضهم بالنصارى، وانتهى الأمر إلى انقسام هذه المملكة الصغيرة شطرين تحت إمرة ملكين متنازعين، وفي نفس الوقت الذى اتحدت قشتالة وأراغون - رغم صراعهما التاريخى - تحت إمرة الملكين الكاثوليكيين ، فاتحد معسكر الأعداء فى وقت تمزق فيه معسكر المسلمين ، فكان طَبَعِيًّا ألا تصمد غَرْناطة بعد اتحاد قشتالة وأراغون أكثر من بضعة عشر عاما وهى التى صمدت وحدها قرنين من الزمان أمام نفس العدو .

نظرة على الفتن الداخلية فى غَرْناطَة :

١- فى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) توفى السلطان الغنى بالله فخلفه ابنه أبو الحجاج يوسف ، ولكن وزيره خالد استبد بالأمر وقتل إخوته ثم سخط السلطان على وزيره فقتله وهادن قشتالة ، ثم ثار ابنه محمد عليه ففشل ، ورغم هذه الأحداث الداخلية المؤلمة فقد قام المسلمون بالإغارة على النصارى فى أحواز مرسية ولورقة كما صدوا بقوة هجوما نصرانيا على مرج غَرْناطة .

٢- خلف السلطان يوسف ولده أبو عبد الله محمد ثم خلفه أخوه السلطان يوسف الذى كان عاقلا فارسا سياسيا ماهرا وفيا لأمته ، ثم خلفه ابنه أبو عبد الله محمد الملقب بالأيسر وكان سيئ الخلق متباعدا من شعبه يحكم عن طريق وزيره ابن سراج فساءت أحوال غَرْناطة واشتد سخط الشعب وكثرت الثورات بتشجيع من قشتالة مما أدى إلى إضعاف الدولة الإسلامية والتعجيل بفنائها .

وعندما زحف النصارى على منطقة وادى آش سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م) وعاثوا فيها فسادا بغير أن يردهم السلطان ثار عليه الأهالى وخلعوه وولوا مكانه ابنه أبا عبد الله محمدا الزغير ، ولكن لم يلبث أن رجع أبوه مرة أخرى بمؤامرة من يوسف بن سراج بالاتفاق مع طاغية قشتالة .

ثم قامت قشتالة في مؤامرة للإطاحة بالسلطان الأيسر فقامت ضده ثورة بمساندتها ووضع مكانه يوسف بن المول الذى توفى بعد ستة أشهر من توليه فاتفق الجميع على رد الأمر إلى إلى الأيسر فنهض بقتال القشتاليين وهزمهم غير مرة .

ثم تتابعت الفتن إلى أن ثار عليه أبو عبد الله محمد الأحنف بن نصر بن أبى عبد الله الغنى بالله سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) فخلعة وبويع مكانه ، ولم تهدأ الفتن ببيعته إذ كان بنو سراج يعارضونه ويساندون أبا الحجاج يوسف بن أحمد بن إسماعيل بن أبى الحجاج بن الغنى بالله فتغلب هذا الأخير على غَرْناطة بمساعدة النصارى ، ولكنه لم يلبث إلا شهورا ثم استعاد الأحنف ملكه سنة ٨٤٩ هـ (١٤٤٦م) وانتقم من النصارى بغزوهم فهزمهم عدة مرات خاصة سنة ٨٥٢ هـ (١٤٥٠م).

وتابع النصارى مساندتهم لأبى الحجاج يوسف وبقى الأحنف سلطانا حتى عزل فى ٨٦٣هـ (١٤٥٨م) حيث خلفه فى الحكم الأمير سعد بن محمد بن أبى الحجاج يوسف بن الغنى بالله وبقى سلطانا إلى ٨٦٧ هـ (١٤٦٣م) حيث ثار أبو الحسن علىّ على أبيه الأمير سعد وخلعه ونفاه ، ثم ما لبث أن نازعه الملك أخواه أبو الحجاج يوسف ، وأبو عبد الله محمد الزغل كل على حدة ، توفى الأول ومضى الثانى إلى ملك قشتالة النصرانى يستنصره على أخيه ، وفى نفس الوقت أعلنت مالقة الثورة على أبى الحسن ونادت بالزغل ملكا عليها فوقعت بينها الحرب وانتهى الأمر بالتقسيم والهدنة حين لم يحسم السيف الخلاف.

وخلال هذه السنين العابسات التى تلطخت بأحداث محزنة وفتن سوداء وتعاون مع العدو استنزفت مملكة

غرْناطة قواها وضاعت منها مدن وقلاع عدة .

وتوالت المآسي ووقعت مملكة غرْناطة المقسمة هذه المرة إلى شطرين فى حرب جديدة من حروبها المتتابعة مع قشتالة المتحدة هذه المرة مع أراغون .

ومع هبوب ريح الحرب وشدة الحاجة إلى لَم الشمل استيقظت فتنة جديدة فى نصف غرْناطة الذى يسيطر عليه أبو الحسن حيث ثار عليه ابنه أبو عبد الله الصغير وبويع ملكا على غرْناطة سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢م) وخرج أسوة بعمه الزغل ملك مالقة (النصف الثانى من مملكة غرْناطة) لمقاتلة النصارى فأسروه واجتمعت الكلمة على عمه الزغل .

وبعد فترة قرر فراندو طاغية قشتالة إطلاق سراح أبى عبد الله لينفخ فى رماد الحرب الأهلية فى غرْناطة ، وبعد أن وقَّع أبو عبد الله معاهدة سرية بطاعته ودفع الجزية فى كل سنة رجع إلى غرْناطة مشيدا بمحاسن الصلح مع النصارى[٧]واشتعلت الحرب الأهلية من جديد وتولى حى البيازين فى غرْناطة الدعوة له ، وبعد فتنة دامت شهرين اتفق الخصمان على تقسيم غرْناطة بينهما فيختص أبو عبد الله بغرْناطة ومالقة والمرية ويشتأثر عمه الزغل بالمناطق الشرقية .

ثم انقسمت غرْناطة مرة أخرى فارتد الزغل إلى وادى آش .

وبدأت قشتالة الحرب مركزة على أراضى الزغل بينما ينادى الصغير بالدعوة إلى السلام مع النصارى فى وقت اشتدت فيه الحاجة إلى بعث روح الجهاد فى النفوس وإثارة الحمية وتنظيم الجيوش وحشد القوة .

حول تسليم غرْناطة :

الناظر فى التاريخ يرى أن كل أمة وكل مملكة إذا هددها الفناء وانتقصها العدو فإنها تدافع عن أرضها دفاعا يختلف قوة وضعفا باختلاف الدول والأزمان .

والناظر كذلك يجد أن أشد دفاع وأعظم استماتة تبذلها الممالك تكون عند آخر معاقلهم حيث يستشعرون الخطر ، ويستعظمون الخطب ، ويتراءى لهم شبح ضياع دولتهم ، وغروب سلطانهم ، ويستولى عليهم رعب الشعور بالفناء ، وتؤخذ عقولهم ، وتتوله قلوبهم وقد هجم عليهم إدراك فداحة المصاب إن ضاع معقلهم الأخير هذا ، وتتتابع فى أذهانهم صور المدن التى فقدوها والقلاع، التى خسروها ، والديار التى تقطعت بها أسبابهم حتى تصير جميع تلك الهزائم بما تحمله من ألم وفزع وكأنها قد حلّت بهم فى يوم واحد هو غداة وقوفهم مدافعين عن آخر معاقلهم ، فإذا بهم يدافعون دفاع المستميت ، ويقاتلون قتال الليوث عن عرينها.

لكن العجيب أن غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس استسلمت بيسر وسهولة ولم تكن للحق بهذا الضعف الذى يحملها على القبول بالذل .

لقد كان عدد سكانها يساوى عدد جميع سكان الجزيرة الأيبيرية حيث كان المسلمون كلما ضاعت لهم مملكة أو سقطت لهم مدينة هاجرت أعداد منهم إلى ما بقى من أرض الإسلام حتى انحسروا إلى غرناطة .

إن غرناطة بعد ٧٥ سنة كاملة من سقوطها –كانت كافية لتمكن المحتلين منها وإضعافهم لهم وتأثيرهم فى الجيل الجديد الذى نشأ فى التنصير القهرى – قامت بثورة كانت قاب قوسين أو أدنى من النصر لا سيما لو

---

[٧] الجدير بالذكر أن النصارى كانوا قد أكرموا منزله حينما أسروه وكان هو خوارا ضعيف الشخصية .

حدث ما كان يخشاه ملك أسبانيا من مشاركة المسلمين فى مناطق أسبانيا الأخرى مثل مُرْسِيَة وبَلَنْسِيَة التى كان عدد المسلمين فيها يزيد على ٢٣٠ ألفا وهم الذين أرسلوا بعد أكثر من قرن من الزمان رسلهم إلى ملك المغرب (أبو المعالى زيدان الناصر[٨]) يطلبون منه تحرير الأندلس ويؤكدون استعدادهم لتقديم ستين ألف مقاتل .

فكيف بعد هذا يعقل أن يكون أهل مملكة غرناطة عاجزين عن رد جيش الملكين الكاثوليكيين عن غرناطة وقد كان عدده خمسين ألفا فقط ؟

وأى خور ومذلة ، وموت لحمية لدين الله وعزة الإسلام فى نفوس ألئك الذين سلموا فى هدوء غرناطة آخر معاقل المسلمين بمساجدها وأسواقها ، وحدائقها ورياضها ، وأوقافها وحرماتها ، وقراها وحصونها وخيولها ، وشيبها وشبابها ، موفورة أسلحتهم ، مفتولة عضلاتهم ؟

<u>إن طارق بن زياد</u> فى أول معارك المسلمين على أرض الأندلس (معركة شذونة) تقدم بجيش عدده اثنا عشر ألفا فقط ليقاتل ملك القوط (رذريق) الذى جاء على سريره متكأ على كرسى من العاج متحليا بالذهب واللؤلؤ ، على رأسه تاجه ومن حوله جيشه الضخم اللجب الذى بلغ جنوده تسعين ألفا[٩] ، فخاض طارق تلك المعركة وعدته نصر الله الذى وعد به المؤمنين وإيمان جنده الذين لم يطمس بصائرهم حب الدنيا فكانت معركة استمرت سبعة أيام[١٠] فى الثلاثة الأولى منها مناوشات ثم انقض المسلمون على أعدائهم انقضاض الليوث حتى اضطربت صفوفهم وولوا الأدبار .

انتصرت لأمر ما هذه الفئة القليلة على ذلك الجيش الذى قارب المائة ألف ، ثم مرت الدهور وكرت العصور وتغير فى المسلمين ما تغير فإذا بخمسين ألفا من نصارى الشمال يلتهمون مملكة مكتظة بالمسلمين فيها ما فيها من الشباب أولى البأس والشيوخ أولى الرأى موفورة أقواتهم جارية أنهارهم بل وهى آخر أرض لهم .

إن المسلمين لم يهزموا فى الأندلس إلا بعد أن انهزم الإسلام فى قلوبهم ، ولم يستول عدوهم على شبر من أرضهم إلا بعد أن استولى عليهم حب الدنيا وكراهية الموت وصار دينهم لعبا ولهوا .

كأنّ ثابت بن قيس رضى الله عنه استشعر هذا السلاح المعنوى الذى ينتصر به المسلمون حين رأى جند المسلمين انهزموا أمام جند مسيلمة الكذاب فى بداية المعركة فتكفن وتحنط ووقف على رؤوس الأشهاد ليصرخ فى جند المسلمين : " يا معشر المسلمين، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ، بئس ما عودتم أعداءكم من الجرأة عليكم ، وبئس ما عودتم أنفسكم من الانخذال لهم " ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (يعنى مسيلمة وقومه)، وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء (يعنى المسلمين)[١١] . ثم كانت النصر للمسلمين .

<u>ولنقارن تأكيدا للمعنى –</u> بين ما حدث فى حصار النصارى لغَرْناطة فى عهد ابن الأحمر سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٤م) وبين ما حدث فى حصارها الأخير لنعرف أن المسلمين هزموا بالوهن الذى استولى عليهم

---

[٨] وصل إلى ملك المغرب سنة ١٦٠٨ م .

[٩] انظر القاموس الإسلامى لأحمد عطية الله ٧٢/٤ .

[١٠] بدأت فى الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢هـ ، يوافق ٧ يوليو ٧١١م .

[١١] صور من حياة الصحابة للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ص٤٨٣ ط دار الأدب الإسلامى

حين انطفأت جذوة الإسلام فى قلوبهم :
١- قائد الجيش النصرانى فى حصار سنة ٨٩٦ هـ هو الملك فراندو .
وقائد الجيش النصرانى فى حصار سنة ٦٤٣ هـ هو دون بطْرَه .

٢- من حيث عُدة العدوِّ وعَدَدِهِ :

حاصر فراندو غرْناطة بجيش أسبانى عدده خمسين ألف مقاتل .
حاصر دون بطره غرْناطة بجيش ملأ الأرض حيث شارك فى الحصار ٢٥ ملكا من جميع أنحاء أوربا جاءوا بجيوشهم وأسلحتهم فى حرب صليبية استجابة لنداء البابا .

٣- من حيث الحالة الخارجية :

لم تصل إلى ابن الأحمر أية مساعدات خارجية .
و لم تصل إلى أبى عبد الله الصغير كذلك مساعدات .

٤- من حيث روح القتال وأثرها فى النتائج :

فى الحصار الأول انطلقت فى البداية سرية واحدة من جيوش أوربا لتقوم بمهمة (تأديب المسلمين) فخرجت إليهم (مجموعة) من فرسان المسلمين وقاموا بقطعهم عن بقية الجيش الأوربى ثم انقضوا على السرية فافترسوها عن آخرها.

ثم خرج ابن الأحمر من غرْناطة فى خمسة آلاف جندى فقط ليواجه جيوش أوربا ولكن عزم جنوده على القتال حتى الموت فانقضوا على الجيش الضخم كالأسود ، ولما رآى الجيش الأوربى عددهم فى البداية وجرءتهم عليه مع قلة عددهم اشمئز من هذه الجرأة ، ولكنه فوجئ بخمسة آلاف أسد يخترقون صفوف الجيش العرمرم كالسهام ، ويثيرون الذعر بن الجنود ، وبعد معركة دامت ثلاثة أيام تلهت خلالها سيوف الأندلسيين من دماء الجيش الأوربى ما شاء الله أن تنهل انهزم الجيش الأوروبى المهول ، وقتل المسلمون قائده (دون بطره) ومعه جميع ملوك أوربا الخمسة والعشرين ، وبلغت الغنائم من الذهب فقط ثلاثة وأربعون قنطارا ، ومن السبى سبعة آلاف نفس ، واستمر البيع فى الأسرى والدواب والغنائم ستة أشهر ، وكان فى جملة الأسرى امرأة دون بطره فعرضت فدية ثمينة هى مدينة طريف المحتلة وجبل الفتح وثمانية عشر حصنا فرفض المسلمون العرض.

وفى الحصار الأخير بدأ فراندو بدعوة الصغير إلى التسليم ففكر وتردد ولكن سرعان ما قرر الرفض حين رأى أن شعباً لن يتردد فى الثورة عليه إن قبل الاستسلام .

ثم أخذت سرايا الجيش الأسبانى تطوف بغرْناطة وتفسد المزارع والحقول بغير أن يحرك أهل غرْناطة ساكنا.

وبعد فترة اجتمع مجلس الحكم فى غرْناطة للتشاور وقد قلت المؤن فبدأوا بفكرة التسليم ولكن رجلا ممن تمكنت منهم عزة الإسلام وهو موسى بن أبى غسان انتفض وقال فى ثورة : " إن قبرا تحت أسوار غرْناطة خير من الدنيا فى ظل الاستعباد " ولكأنما أيقظت روحه الحماسية المجلس من سكرته ، وبددت شيئا من سحب الجبن والوهن فقرر أبو عبد الله الصغير أن يولىِّ موسى بن أبى غسان أمر الدفاع ، فانطلق بفرسانه

وانقض كالصاعقة على جيش فراندو حتى أثار الذعر بشجاعته فى صفوف الأعداء ، وعندما رأى الصغير الوضع هكذا تشجع وأقبل بحرسه الملكى فاشترك فى المعركة ، ولكن مال فرسان فراندو على مشاة المسلمين فزالوا عن أماكنهم وولوا هاربين مذعورين ، وعندما رأى حرس الصغير زوال المشاة عن أماكنهم أداروا الأعنة ولاذوا بالفرار .

ثارت ثائرة موسى وراح يدعو الفارين إلى الثبات والذود عن ديارهم وأموالهم ونسائهم ولكن ذهبت صيحاته أدراج الرياح بسبب الذعر الذى استولى على الهاربين ، فثبت وحده وظل يجالد جيش فراندو وهم يتكاثرون عليه ويتساقط إخوانه من حوله حتى بقى فى عصبة قليلة من حوله فآثر التحصن بالمدينة إبقاء على من بقى معه .

عاد كبار الجند والفقهاء والأعيان إلى التشاور فى قصر الحمراء ، فاجتمعوا فى بهوه وارتفعت أصواتهم تطلب التسليم، فهب موسى بن أبى غسان وصاح : " خير لنا أن نذكر فيمن استشهدوا فى الدفاع عن غرْناطة من أن نذكر فيمن سلموها إلى الأعداء مختارين " فأعرضوا عنه وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وفى المجلس التالى عندما وصلت شروط التسليم ارتفع بكاء الحاضرين وعويلهم وهم يستمعون إلى الشروط شرطا شرطا ، فصاح موسى : " كفى بكاء وإلى سيوفنا ندافع عن حريتنا ولنمت ميتة نبيلة " فأعرضوا عنه وانطلق هو إلى جواده فطار به كالمحموم إلى خارج غرْناطة حتى وقع بصره على سرية من الجيش الأسبانى فهجم عليها وطفق يضرب هذا ويقتل ذاك وهم يتكاثرون عليه فاستل خنجره وأخذ يطعن فيهم حتى إذا رأى أنه سيقع فى أسرهم ألقى بنفسه فى اليم .

وأما أبو عبد الله الصغير فقد قدم موعد تسليم غرْناطة خوفا من ثورة الشعب فسلمها فى ١٤٩٢/١/٢م بدلا من ١٤٩٢/١/٢٥م.

وهكذا :

ضاعت الأندلس بموت روح الإسلام فى النفوس ، وفساد ذات البين ، بالإضافة إلى تلك العصابة الفاسدة التى ألقت إليها الأقدار أزمة المسلمين فخانوا الله ورسوله والمسلمين ، ويكفى أن نعلم أن أحد الاثنين الذين توليا المفاوضة لتسليم غرْناطة وهو الوزير ابن كماشة قد تنصر طواعية بعد التسليم بل صار من رهبان النصارى ، وشاركه فى الارتداد عدد غير قليل من أفراد الأسرة المالكة وعِلْيَة القوم ، ومن هؤلاء الأميران سعد ونصر ابنى السلطان أبى الحسن ومعهما أمهما ، وتنصر الأمير يحيى النيار ابن عم أبى عبد الله الزغل وقائد المرية بعد أن سلمها فتنصر هو وابنه وزوجته واستبدلوا أسماءهم بأسماء نصرانية لعنة الله على الجميع .

جرثومة المرض :

لكن ما السر فى هذه الأمراض الفتاكة التى ألمت بالأندلس وانتهت بالقضاء على دولة الإسلام هناك بدءًا باستيقاظ العصبيات وتمزق البلاد إلى دويلات متنازعة يستنصر بعضهم على بعض بأعدائهم ؟ ، وكيف وصل إلى قيادة الأمة رجال خانوها وأضاعوها ولم ينصحوا لها ؟ ، وما السر فى موت روح الإسلام فى النفوس واستيلاء الوهن على القلوب حتى قبلت الحياة على أنقاض الحرمات والكرامة ؟

السبب فى هذا كله هو ذلك الداء العضال الذى فتك بالأندلس كما فتك بدولة الخلافة الإسلامية فى

المشرق، السبب هو توريث الحكم بدل الشورى فيه .

إن هذا الداء العضال أوصل إلى قيادة المسلمين أمراء ضعافا انتعشت في عهدهم الفتن ، واستيقظت العصبيات فتمزقت الدولة الإسلامية إلى دويلات متصارعة سرعان ما سقطت في أيدي النصارى .

لقد وصل بهذه الطريقة إلى قيادة المسلمين رجال جعلوا ولاية أمر المسلمين ملكا عضوضا ركنوا فيه إلى الترف والتمتع بزينة الدنيا على حساب أداء حق الأمة والعناية بمصالحها بل لم يكن أحدهم يبالى أن يخون أمته أو يستنصر عليها بأعدائها إذا خاف ضياع الكرسى .

ولقد كانت فى أهل غَرْناطَة حَمِيَّةٌ جعلتهم يثورون على ولاتهم عدة مرات فيخلعون واليا ويولون آخر كلما زاد انحرافهم عن الحد كما فعلوا بعبد الله محمد المخلوع حين تحالف مع قشتالة ضد المغرب فثار عليه أهل غَرْناطَة سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٩م) وبايعوا مكانه أخاه أبا الجيوش نصر [١٢] ثم ثاروا عليه وخلعوه سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤م) حين وافق على أداء الجزية لطاغية قشتالة .

وكذلك ثاروا على السلطان أبى عبد الله محمد الغنى بالله سنة ٧٦٠هـ فخلعوه ونصبوا أخاه أبا الوليد إسماعيل ثم قامت ضده ثورة سنة ٧٦١هـ فخلع وقتل وبويع آخر بعده .

وهكذا نرى سيلا من الثورات أمام سيل من الملوك الذين لا يصلحون لقيادة ولا يحسنون إمرة .

ولكن أين كان فقهاء المسلمين فى كل هذه الثورا ت ؟ لماذا لم يقوموا بما أخذ الله عليهم من الميثاق فيبينوا شرع الله للناس، ويفهموهم منهج الإسلام فى اختيار الحاكم وأنه يُختار على أساس الكفاءة وليس على أساس عرق أو نسب .

إن الفقهاء أجمعوا على أن توريث الملك بدعة فى دين الله ، وأن أمر المسلمين ومصالحهم ليست تركة يرث الابن فيها أباه .

لو أن الفقهاء نهضوا فى هذه الثورات فوجهوا جموع الشعب إلى أن يختاروا لهم أميرا كفءا بدل أن يولوا واحدا من (أفراد الأسرة المالكة) .

لقد كانوا يستطيعون أن يقوموا ويبينوا شرع الله فى هذا الأمر وأنه شورى لا وراثة ، ولو فعلوا لوصل إلى قيادة المسلمين واحد من أولئك العشرات ذوي الكفاءة العالية والحرص على مصالح المسلمين الذين أخَّرَتْهُم أثَرَة الملك فعاشوا مغمورين أو مضطهدين حين زهدت الأمة فى قدراتهم اتباعا لهوى عشاق السلطة .

لو حدث هذا لَمَا رأينا الأندلس تنتقل من عز إلى ذل ، ومن قوة وفتوة إلى ضعف ووهن ، ولَمَا شهد التاريخ غروب شمسها وانطفاء نورها .

إن ذلك الداء الدوى داء الملك – هو الذى أوقف امتداد نور الإسلام على بقية أوربا ، وهو الذى أسقط دولة الخلافة فى المشرق ، وبه رأينا الغرب يسيطر على العالم الإسلامى دهرا طويلا فيما عرف بالاستعمار

---

[١٢] من الأشياء التى ينبغى أن ينتبه إليها الذين يريدون أن يعتبروا بماضى الأمة أن أبا عبد الله المخلوع كان أديبا فقيها ومع هذا فلم يكن رجل دولة فغلب عليه وزيره وساءت أمور الدولة الداخلية ، وكذلك كان أخوه أبو الجيوش نصر أديبا ولوعا بالرياضة والفلك. لهذا يقول الفقهاء باشتراط الكفاية فى الحاكم وهى ما عرفها بعضهم بقوله : " أن يكون فيه قوة على تنفيذ الحق بنفسه، فإن بعض الناس يكون عالما دَيِّناً ونفسه ضعيفة عن التنفيذ والالتزام والسطوة فيطمع فى جانبه بسبب ذلك " . (الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع) .

يمتص دماءه ، وينتهب خيراته .

بل إن المتأمل فى تاريخ الممالك كافة فى تاريخ العالم يرى أنها جميعا عاشت مرحلة شباب وقوة تلتها شيخوخة وضعف ، وما ذلك إلا لأن الجيل الثانى من ملوك الأسرة الحاكمة لا يكون كالجيل الأول ، والجيل الثالث وما بعده لا ينشأ على ما نشأ عليه أسلافه ونالوا به الملك فإذا هم يركنون إلى الدعة والترف فى ظلال القصور (فتذهب منهم خلال الخير التى كانت علامة على الملك ودليلا عليه ، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على الإدبار والانقراض) [١٣].

وهكذا ينحدرون بتطاول الزمن ، وتنحدر وراءهم أمتهم إلى أن تنتهى إلى هاوية الضياع .

ولا عاصم من هذا إلا شرع الله الذى يجعل قيادة الأمة أمانة يتولاها من كل جيل عدوله يحفظون على الأمة دينها ومصالحها، ويسرعون بمداواة ما يظهر فيها من أمراض قبل استفحال خطرها .

وحيث إن الملك شهوة لا تعدم طالبا يزين للناس أن الله حصر الفضائل والكفاءة فى سلالته فالعلماء هم المسؤولون عن بيان الحق وإرشاد الناس لاسيما إذا كان الشعب مستعدا للتغيير كما رأينا فى الأندلس .

وليسألن يوم القيامة عما كانوا يعملون .

---

[١٣] أكد هذا المعنى ابن خلدون فى مقدمته فراجعه فى الفصل العاشر وما بعده إلى الخامس عشر .